تريز راكان

رواية

تأليف

إميل زولا

تقديم ومراجعة

د. حسن عبد المنعم

الكتاب: تريز راكان.. (رواية)

الكاتب: إميل زولا

تقديم ومراجعة: حسن عبد المنعم

الطبعة: ٢٠٢٠

الناشر: وكالة الصحافة العربية (ناشرون)



٥ ش عبد المنعم سالم – الوحدة العربية – مدكور- الهرم – الجيزة

جمهورية مصر العربية


هاتف : ٣٥٨٢٥٢٩٣ _ ٣٥٨٦٧٥٧٦ _ ٣٥٨٦٧٥٧٥

فاكس : ٣٥٨٧٨٣٧٣

E-mail: news@apatop.comhttp://www.apatop.com

دار الكتب المصرية

فهرسة أثناء النشر

زولا، إميل

تريز راكان.. (رواية) / إميل زولا ، تقديم ومراجعة: حسن عبد المنعم

– الجيزة – وكالة الصحافة العربية.

١٣٠ ص، ١٨*٢١ سم.

الترقيم الدولى: ١ – ٧١ – ٦٧٧٤– ٩٧٧– ٩٧٨

أ – العنوان رقم الإيداع : ٤٨٧٣ / ٢٠٢٠

تريز راكان

رواية



مقدمة

"لقد طغت الرواية على مختلف الميادين وسادت العالم بقدر ما ساده العلم، فقد تناولت كل الموضوعات، فكتبت التاريخ وتصدت للفيزيولوجيا وعلم النفس وصعدت إلى أرقى القصائد ودرست المسائل الأخرى المختلفة من اقتصاد اجتماعي وأخلاق ودين، حتى لقد اتخذت الطبيعة كلها ميدانًا تصول فيه وتجول ".

هذه الكلمات لم يكتبها حديثا كاتب ممن يروجون لمقولة زمن الرواية، بل كتبها الكاتب الفرنسي الشهير "إميل زولا" في نهاية القرن التاسع عشر، وذلك في معرض دعوته للرواية الواقعية، التي قال عنها " هذه هي الرواية الواقعية اليوم. ولقد كتب لها النصر، فجميع الروائيين يلجأون إليها حتى الذين حاولوا فيما سبق أن يقضوا عليها وهي في مهدها. ولعمري إنها الأحدوثة الأبدية: يغضب الإنسان ويسخر، ثم ينتهي به الأمر إلى التقليد، ونحن الآن أمام عصر جديد يفتح لنا أبوابه على مصاريعها ".

وزولا في روايته هذه "تريز راكان" وفي مجمل نتاجه الروائي يجعل شخصياته أسرى لفكرة تتسلط عليهم بحيث لا يلاحظون ما يدور

حولهم، فينتهي بهم الأمر إلى التصادم والوقوع في الكوارث، لأنهم يسيرون بدافع أهوائهم في خطوط متوازية كقضبان السكة الحديد.

وقد نشرت هذه الرواية لأول مرة في عام ١٨٦٧م في باريس، ويومها أثارت ضده موجة من الغضب في الأوساط البرجوازية، فوصفتها الصحف بأنها تنتمي إلى "الأدب المتعفن"، وأدرجتها في القائمة السوداء مطالبة بمصادرتها وتقديم كاتبها إلى المحاكمة. لكن الرواية رغم الهجوم الرسمي عليها وجدت إقبالا كبيرا من القراء فتم تداولها سرا، وذاع صيت كاتبها وكان لا يزال في السابعة والعشرين من عمره، ودشنت الرواية النزعة الطبيعية في الأدب، كما صارت مرجعاً لدى زولا نفسه الذي ما عاد يكتب منذ ذلك الحين، إلا انطلاقاً من المعايير التي حددها للعمل الأدبي في تلك الرواية.

***

ولد إميل زولا في الثاني من إبريل عام ١٨٤٠م في باريس، لأب ينحدر من أصول إيطالية وفرنسية، وأم فرنسية، انتقلت العائلة إلى مدينة أكس في جنوب شرق فرنسا عندما كان زولا في الثالثة من عمره، ثم توفي والده عام ١٨٤٧م وتولت والدته رعايته، وفي عام ١٨٥٨م عادت الأسرة إلى باريس وهناك تعرف زولا على صديقه الرسام بول سيزان، وبدأ في الاتجاه للكتابة بالأسلوب الرومانسي، ولم يتلق زولا تعليمه كاملاً، حيث لم يستطع إكمال دراسته في كلية سان لوي وغادرها عام ١٨٦٠م

وكانت والدته تأمل أن يصبح أبنها محامياً إلا أنه فشل في امتحان البكالوريا، فاضطر لقبول العمل في وظيفة كاتب في إحدى شركات النقل البحري، ثم انتقل منها للعمل في إدارة المبيعات في دار نشر فرنسية "هاشييت"، كما قام بالكتابة في الأدب والفن في إحدى الصحف الفرنسية، وهو العمل الذي أتاح له الاتصال بعدد من أساتذة النقد والأدب في تلك الفترة، من مثل رينان وسانت بوف وميشليه ولامارتين وليتريه وتين، كما سمح له بالتعرف على بعض محرري الصحف اليومية الذين ساعدوه على العمل بالصحافة، وضمن من طريقهم الكتابة المنتظمة في جريدتي "لو بيتي جورنال" في باريس و"لو سالوبوبليك" في ليون.

وحدث في عام ١٨٦٦م أن صاحب جريدة "الفيجارو" فيلمسان أصدر صحيفة أدبية باسم "الحدث " وقرر أن يلبثد في تحريرها على الأدباء الناشئين، وكان من بينهم إميل زولا الذي ترك عمله في مكتبة هاشيت ليتفرغ تماما للصحافة والأدب، وفي ختام هذا العام انعقد "مؤتمر فرنسا العملي" بمدينة أكس لمناقشة موضوع الرواية وتاريخها، ووجد فيه زولا فرصة لعرض أفكاره، فأرسل مذكرة إلى المؤتمر أعلن فيها أن الإنتاج الذهني يترجم وسيلة الحياة لمختلف المجتمعات البشرية. وبعد أن استعرض تاريخ الرواية قال: " لو أني طلبت من بلزاك في حال حياته أن يحدد لي معنى الرواية لرد علي دون شك قائلًا: الرواية هي رسالة في تشريح الطبائع والأخلاق، وتجميع لأحداث البشرية، وفلسفة تجريبية للأهواء، هدفها وصف حقيقة الناس والطبيعة".

هكذا اقتنع زولا بمذهب الحتمية وأهميته في دراسة الواقع الاجتماعي، وكتب وفقا لهذه القناعة روايتين نشر أولاهما في سنة ١٨٦٧م بعنوان "تريز راكان" أما الثانية "مادلين فيرا" فقد نشرها في العام التالي، ويمكن ربطهما بإنتاجه الضخم "أسرة روجون ماكار"، فالأبطال في الروايتين "أناس مثقلون بالرواسب الوراثية ويتطورون تحت تأثير البيئة".

هذا وقد ظهر زولا في عصر ازدهرت فيه العلوم الطبيعية وقام فيه الباحثين بالإقبال على دراسة الحياة وتسجيل ظواهرها وإجراء التجارب وتدوين النتائج والملاحظات، فرفضوا الخيال وتمسكوا بالحقائق الملموسة، وكما تمسك الباحثين والعلماء بالحقائق الطبيعية الثابتة، فعل الأدباء مثلهم فابتعدوا عن الخيال والشعر واتجهوا نحو الحقائق والطبيعة والبيئة التي يحياها الإنسان ويتأثر بها ويؤثر فيها، ومن هنا امن زولا بأهمية بناء الرواية على التفكير العلمي والوصف الحقيقي والدقيق للمجتمع والواقع، فيرى أن من واجب الرواية أن تدرس الطباع الإنسانية والتكيفات العميقة الأثر للعضوية البشرية تحت ضغوط البيئة والأحداث.

وقد توالت أعمال زولا بعدها مشيدة صرحا روائيا وأدبيا مازال شامخا حتى اليوم، ويضم الإنتاج الأدبي لزولا سلسلة قصصية عن المدن وحياتها وبعض الروايات التي يبشر فيها بإنجيله الاجتماعي ومجلد من الروايات المسرحية، وعدد من المجلدات في النقد، وبعض القصص القصيرة.

وقد توفي زولا في ٢٩ سبتمبر من عام ١٩٠٢م، مختنقا بغاز أول أكسيد الكربون الذي انبعث عندما توقفت إحدى مداخن المنزل. وكان عمره حينها ٦٢ عاما، وقد روج البعض حينها لفكرة اغتياله علي يد أعدائه لمحاولاتهم السابقة لاغتياله، ولكن لم يتمكن أحد من إثبات ذلك، لكن القاتل اعترف بعد عشرات السنين وهو على فراش الموت أنه هو الذي أغلق فوهة المدخنة لأسباب سياسية.

ودفن زولا في البداية في مدافن مونتمارتر في باريس، ولكن في ٤ يونيو ١٩٠٨م، أي بعد ما يقرب من الست سنوات بعد وفاته نُقلت رفاته إلى البانثيون (مقبرة العظماء) بباريس، حيث دفن في قبو بالقرب من مقبرة فيكتور هوجو.

"تيريز راكان" اسم الزوجة الشابة، وهي الشخصية المحورية في الرواية، أما عمتها العجوز، فصاحبة محل الخردوات، وتبدو الشابة عبر أحداث الرواية لا مبالية بأي شيء، تتزوج من كميل، لا تبدو مبالية على الاطلاق بزوجها أو بحياتها الزوجية، حتى من دون أن تكون لها بدائل في تلك الحياة.

أما كميل نفسه فإنه شخص مريض نفسياً وضعيف الشخصية. ولكن ذات يوم يصطحب كميل معه الى المنزل صديقه لوران الذي يقدم نفسه على أنه رسام. ولوران هذا شخص لئيم وحيوي في الوقت نفسه. وهو إذ يلاحظ الحياة الرتيبة للزوجين، فيرمي بشباكه على الزوجة التي

تجد في لوران ما تفتقده في حياتها وحياة زوجها وعمتها. من هنا تبدأ فكرة التخلص من كميل تراود العاشقين، حتى اليوم الذي تنفّذ فيه الجريمة بالفعل: يسقط كميل في الماء ويغرق، بينما يعجز لوران الذي يسارع لنجدته، عن انقاذه. وهكذا يخلو الجو لتيريز وعشيقها... من دون أن يتنبها الى أن المرأة العجوز، أحست بكل شيء على رغم أنها مصابة بالشلل، غير أن العقاب إذا لم يتحقق من طريق الشرطة والقضاء، فإنه سيأتي من الداخل، ذلك أنه ما إن انقضت الأيام الأولى على ارتكاب الجريمة، حتى بدأت تحس بالوسواس والقلق يطاردانها في كل لحظة وفي كل مكان، خصوصاً أنها تعيش الآن في الغرفة المخصصة أصلاً لكميل وتحس وجوده وتأنيبه لها. كذلك فإن مدام راكان، العجوز، تلقي على تيريز نظرات محملة بالاتهام. فوجهها يعكس المأساة كلها. وهكذا يبدأ لوران وتيريز هبوطهما الى الجحيم الداخلي.. ويبدأ الصراع والاتهامات المتبادلة بينهما، وصولاً الى اللحظة التي يتهم فيها كل منهما الآخر بالجريمة. وينتهي الأمر بأن يسمم فيها كل منهما الآخر.

إميل زولا واحد من الذين أدمنوا البحث في الجريمة وعنها، وهي في أعماله وكتاباته لغزٌ من الألغاز، فهو يدعي بأن الإنسان يحوي كوامن وحشية غائرة في نفسه هي التي تتفجرُ في لحظات معينة مخيفة، وإلا كيف نتصور هذا الفلاح المسالم الذي يعيش طوال عقود في القرية ينحني احتراما للآخرين، ويقودهم إلى بيته للضيافة، ولم يصدر منه أي فعل عنيف، كيف ينقلب فجأة إلى وحش ضارٍّ يحمل بندقية أو يلقي زجاجة حارقة على سيارة؟

يرى إميل زولا أن الإنسان كائنٌ متوحش أصلاً، وما هذه المسالمة سوى غلاف حضاري تكرس خلال فترة تربية زائفة. وحين سمحت ظروف الوحشية بخروجِ الغرائز فهو يقوم بخنق صديقه الضعيف الطيب في النهر متعاوناً بهذا مع زوجته الغادرة، كما في رواية (تريز راكان)، ولقد كانت هذه الشخصية المجرمة لا تجد في نفسِها شراً متأصلاً، لكن مع تصاعد التناقض بين جسم الزوجِ الهزيل المريض، وجسم القاتل القوي المزدهر بالحياة، حتى صعدت فيها قوى الحياة من جهة وقوى القتل من جهة أخرى، وألغت الذبول، وعانقتْ الحبَ والعيش والبقاء عبر الجريمة.. يخلق زولا التصادم التجريدي الحيوي بين قوة الحياة الحيوانية الضارية وبين ضعف الأجسام التي يجب أن تُداس وتُزال بسببِ عدم صلاحيتها للعيش.

سنرى لغات الكراهية الحيوانية لا تحمل أي صداقة أو حب، وفجأة تتحول الكائناتُ البشرية إلى ضوارٍ بفعل الغسيل الطويل للأدمغة وينقلب المسالم إلى وحش.

د. حسن عبد المنعم



الممر الضيق

عند منطقة "جينو" إذا عبرت مفترق الطرق وأنت تواصل طريق عودتك من طريق النهر ناحية رصيف السفن، فسوف تصل إلى ممر تعلوه قنطرة، وهذا الممر الملبث الضيق يصل بين شارعي "مازاران" و "السين"، وقد رصفت أرضه بالبلاط العتيق الذي استحال بياضه صفرة تميل إلى الدكنة، أما الزجاج، الذي تتألف منه تقاطيع القنطرة، فتعلوه الأوساخ والأتربة، إذ لم يعد الضوء ينفذ منه إلا عندما يصفو الجو وتنجلي صفحة السماء، واشتهر هذا الممر الذي لا يزيد طوله على الثلاثين مترا، باسم "بونت نوفو" أو الجسر الجديد.

ستجد في الجهة الشمالية من هذا الممر دكاكين صغيرة لبيع الكتب، والسلع القديمة، وألعاب الأطفال، والملبوسات الداخلية. وخلال مرورك لن تر إلا ظلالا تتحرك في هذه الدكاكين التي تشبه الكهوف.

أما في الجهة المقابلة، فقد وضع أصحاب المحال مناضد ضيقة تستند إلى الحائط الأسود ليعرضوا عليها بضائعهم.

هذا الممر الملبث المقبض لا يلجأ إليه إلا من يجد نفسه مضطرا لاختصار الطريق، وهم إما من العمال، أو من تلاميذ المدارس الذين

يحبون الكر والفر فيه لكي يستمعوا إلى الضجة التي تحدثها نعالهم على البلاط.

وفي الليل يضاء الممر بثلاثة مصابيح زجاجية، ينعكس نورها الأصفر الباهت على هذا الحيز الضئيل، فيبدو المكان أشبه بمصيدة الموت، أما أصحاب الدكاكين، فيبددون جزءاً من الظلام المتكاثف في محالهم بمصابيح خافتة النور لكنها تتيح للعابرين رؤية ما تحتويه محالهم من السلع.

وكان المارة، منذ بضع سنين، يؤون لافتة كتب عليها بالخط العريض "خردواتي "، ويسترعي انتباههم اسم صاحبة ذلك الدكان "تريز راكان" مكتوبا بشكل واضح أسفل اللافتة مباشرة.

وتوسط الباب واجهتين زجاجيتين عرضت فيهما أنواع مختلفة من السلع، وكانت هذه السلع المعروضة عبارة عن قطع الملابس الصوفية والكتانية، والياقات والأزرار وإبر الحياكة ونماذج التطريز والأشرطة، وما شاكل ذلك.

ويستطيع المرء، إن حدق إلى الداخل مليا، أن يتبين وجه امرأة شابة مقطبة الأسارير طويلة الأنف دقيقة الشفتين، يتوج رأسها هالة من شعر كثيف أسود كالليل.

وكثيرًا ما يرى بجانبها امرأة أخرى وخط الشيب رأسها وعلاها الكبر، كما يرى شابًا يناهز الثلاثين يجلس في الركن الضيق، وهو منصرف إلى القراءة أو مستغرق في الفكر أو مقبل على المرأتين يجاذبهما أطرافًا من الحديث. وكان الشاب نحيلًا هزيلًا متوسط الطول، وقد أهمل شعر رأسه، فتهدلت خصلاته الذهبية على جبينه، وبدا بشعر ذقنه الخفيف وإهابة الذي بقعة النمش، أشبه بطفل غرير أفسده التدليل.

وتغادر هذه الأسرة الصغيرة دكانها قبل العاشرة بقليل، فتصعد إلى منزلها، يلحق بها القط المرقش وهو يتمسح بأرجلهم ويمؤ مواء الجائع.

وتقبل المرأة العجوز ابنها وزوجته ثم تلوذ بغرفتها، وينام القط على كرسي في المطبخ، ويدلف الزوجان إلى مخدع نومهما.

وللمخدع هذا، الذي شغله الزوجان الشابان، باب آخر يفضي إلى الممر بدهليز ضيق يتلبد فيه الظلام.

وما يطمئن الزوج إلى خلوته بزوجته، حتى ينضو ملابسه عن جسده، ويتهالك على فراشه وهو ينتفض انتفاضة الحمى التي كانت تزوره في كل ليلة، ولا تخلف موعدها معه في أية ليلة.. أما الزوجة الصغيرة فتقصد إلى النافذة وترسل بصرها على سجيته، فيصطدم بالجدار ويرجع إليها خائبًا فاشلًا، فتسعى إلى سبر غور هذا الظلام الضارب الجران، ولكنها لا تفوز بطائل.. ويلفحها الهواء البارد، فيقشعر جسدها وترتعد فرائصها، وتشعر أن شيئًا مجهولًا يتربص بها الدوائر، وأن عيونًا

حمراء تحدجها، وأن هاتفًا بعيد الغور يصيح بها قائلًا: «إلى أين المصير؟ إلى أين المصير؟ وما فائدة حياتك؟».

ولا تلبث أن تغلق النافذة وتنثني راجعة لتنام في جوار زوجها.

سبق لمدام راكان أن امتهنت بيع السلع في فيرنون، وقد عاشت زهاء خمس وعشرين سنة في دكان صغير في تلك المدينة، وألفت نفسها بعد موت زوجها بسنين قليلة متعبة مكدودة. فباعت دكانها، وتوفر لديها بجانب ما ادخرته من المال ثروة صغيرة قوامها أربعون ألف فرنك. ولم تلبث أن وظفت هذا المال في أعمال درت عليها دخلًا سنويًا مقداره ألفا فرنك، فقنعت بما قسمه الله لها، وزاد دخلها عن حاجتها، وعاشت راضية مرضية في منزل صغير اكترته على ضفاف نهر السين في مكان يبعد عن الخلق وتحيط به الأشجار والأيك.

وهكذا عاشت مع ابنها كميل وابنة أخيها تريز في جو صاف وبال خال وسرور رزين.

وكان كميل في ذلك الحين ابن عشرين، إلا أن أمه كانت تغدق عليه بالدلال كما يدلل الطفل.. فهي تحبه تكاد تهيم به، أنها طالما دفعت عنه غائلة المنون بحدبها وحنانها، وسهرها وعنايتها..

فمنذ نعومة أظفاره دهمته الأمراض، واجتاحته الأسقام، وكثرت عليه العلل حتى لم يبق مرض من الأمراض المعروفة إلا وامتحن به — طفلًا

وغلامًا ويافعًا – وأمضت هذه الأم الرؤوم الصبور خمس عشرة سنة في مرار متصل، وخوف ممض، وفزع لا يسكن إلا ليثور.. ولكنها تغلبت بجلدها وإخلاصها ومثابرتها على هذه الأمراض التي ما انفكت تغزو جسد ولدها دون شفقة أو رحمة.

خلفت العلل المختلفة وراءها شابًا متهافتًا مستضعفًا رقيق الجسم واهي القوى، وكأنها من كثرة إلمامها بجسده، حدت من نمو هذا الجسد، وأخمدت من نشاط صاحبه، وجنحت به إلى الخمول والتواكل... وقد أذكى هذا من حب الأم.. فخوره أرث نار هذا الحب في صدرها، وتهافته جعلها لا تطيق عنه فراقًا.. وما أكثر ما كانت تنظر إلى وجهه الضامر النحيل نظرة وله وظفر.. ولا عجب، فهي تشعر في قرارتها بأنها أعطته الحياة في كل مرة تعرض للردى.

وكان جهله وقلة علمه بمثابة ضعف جديد أضيف إلى وهنه وخوره، ولكنه التحق بالعمل في مؤسسة تجارية بمرتب ستين فرنكًا في الشهر، ولم يرتح للعمل إلا لأنه وسيلة ينقذ بها نفسه من وحدته وجموده...

وكان أشبه بالطفل الذي تفرحه الدمى الصغيرة وتلهيه عن دنياه.. فحدب أمه عليه ورعايتها له واعتناؤها به، جعله يشعر بالضيق والشقاء.. ومع أنه اعتقد بأنه يحب أولئك الذين يشفقون عليه ويمحضونه الود، إلا أنه في الحقيقة كان يحيا حياة مستقلة بعيدة كل البعد عن حياة سواه من

الخلق.. كان لا ينشد إلا مصلحته وخيره وسروره، وكان لا يرجع مساء من عمله إلا ويصطحب ابنة خاله إلى ضفة السين انتجاعًا لراحته.

وكانت تريز في ذلك الحين تناهز الثامنة عشرة ربيعًا، وقد أتى بها أبوها منذ ستة عشر عامًا وقدمها إلى شقيقته وهو يقول: «هذه ابنتي أتركها وديعة لديك، فاعتنى بها واكلئيها بمحبتك».

وعلمت مدام راكان فيما بعد أن أم الفتاة امرأة من المغرب ولدت بها سفاحًا، وأن أخاها الضابط قد قفل راجعًا إلى المغرب. بيد انها لم تلبث أن علقت بالطفلة وقسمت محبتها بينها وبين ابنها كميل، حتى أصبحت الفتاة تشاطر الفتى سريره ومأكله، ولكنها كانت مغايرة له في كل شيء.. فصحتها جيدة، وبيتها حديدية، ومع ذلك فقد شاركته في دوائه، وتحملت معه جو الحجرة الخانق، وكانت تلازم الموقد بجانبه ساعات طويلة، ولا تحول عينيها عن ألسنة اللهب المندلعة.

هذه الحياة القاسية الجافة جعلتها تنطوي على نفسها، وتحرص على التكلم بصوت خافت مهموس والمشي على رؤوس أصابعها، والجلوس جامدة صامتة محملقة بعينيها. ولكن المتأمل كان يكتشف فيها ذخيرة من نشاط، كما كان يكتشف فيها عاطفة جياشة كبتتها هذه الحياة التي فرضت عليها فرضًا. وما كان ركونها إلى الصمت والهدوء ليقتل فيها هذه الجذوة المتقدة، وما كان استسلامها للوحدة ليودي بنشاطها وقوتها وصحتها، فلما باعت عمتها دكانها وانتقلت إلى ذلك البيت طغى الفرح

على تريز، فقد رأت بأم عينها جمال الطبيعة المتمثل في الأشجار والأزهار والطيور والمياه، ودت لو تنسى لها أن تطفر في هذه الدنيا الجديدة، وأن تعدو وتقفز وتغني وتضحك ملء فمها.

ولكنها كتمت ما غزا فؤادها، وبقيت كما كانت– تلك الفتاة المحتشمة الحيية الطيعة – وكانت تغتنم الفرصة فتنبطح على حشائش الحديقة الخضراء، وتبقى في مكانها الساعات الطوال، لا تفكر بأمر ذي بال، بل تستسلم بكليتها للأحلام، وتصغي إلى ضوضاء المياه المنسابة في النهر بشغف وسرور.

في أول ساعات الليل كانت تجلس قريبًا من عمتها، فتخيط الثياب معها، وتصلح ما رث منها، ولا تتكلم إلا لمامًا، ولا تتحرك من مكانها إلا عبثًا. وكانت مدام راكان تنظر إلى المستقبل بعين الواثق المطمئن، كانت مصممة على ربط الشابين برباط الزوجية، وكانت تفزع كلما فكرت بأنها ستموت فتترك وحيدها بلا معين.. غير أن ثائرتها كانت تهدأ كلما فكرت بتريز، وبقوة تريز وصبرها.

وأيقن الشابان أنهما صائران إلى زواج إن عاجلًا أو أجلًا، وأن هذا الأمر سيتحقق حينما تتخطى تريز سن العشرين.بيد أن كميل كان على نقيض سواه من المراهقين، فقد فتت الأمراض من عضده، فلم ينظر إلى المرأة كما ينظر سواه من الشباب، بل رأى في تريز الصبية الجميلة المكتملة الأنوثة صديقًا يسري عنه همومه ويساعده على تزجية أيامه...

لقد خلا جسده من العاطفة، ولم تعرف الشهوة سبيلها إليه، ولم ينل تلك الرعدة اللذيذة التي تسري في عظام الشاب الشرخ متى لامست يده امرأة في مثل عمر الزهر، كتريز..

وجارته تريز في الظهور بمظهر من لا يأبه للنزع الجياشة، كأنها هي الأخرى قدت من صخر أصم..

مخدع الزوجية

في تلك الليلة نامت تريز في مخدع الزوجية.. هذا كل ما طرأ على حياتها وحياته.. ولم يقع بينهما شيء جديد... ولم تحدث مفاجأة جديدة..

وفي الصباح استأنف كل منهما طباعه وعاداته، كميل يشكو الوصب، ويتذمر من الإعياء، ويسخط من سوء الحظ، وتريز تشخص بعينيها الواسعتين في قلة اكتراث، وتتحفظ ذلك التحفظ المخيف في جموده وبروده..

بعد أسبوع من زواجه، جابه كميل أمه بإصراره على النزوح إلى باريس، ولما رأى منها إعراضًا ونفورًا من فكرة الهجرة، أصر على ما وطد العزم عليه وأسمعها كلمات نابية.وتركت كلماته الخشنة في نفس أمه مقدارًا كبيرًا من الأسى، إلا أنها رضخت له في النهاية ولبت طلبه، وقصدت باريس ذات يوم وألمت بجسر بونت نوفو، فاشترت دكانًا من تلك الدكاكين الصغيرة، وأكرت المنزل الذي يعلو الدكان، ودفعت في ذلك كله ألفًا وخمسمائة فرنك من ضمن الأربعة الآلاف فرنك المتوفرة لديها من دخل ثروتها.

وارتاحت نفسها بعد قلق، وأفرخ روعها بعد خوف، فمرتب ابنها، متى وجد العمل اللائق في باريس، مضافًا إليه ما تكسبه من العمل في

الدكان، قد يفيان بحاجة العائلة الصغيرة، فلا تضطرب معيشتها ولا تضطر إلى مس الثروة أو الإيراد.

ورجعت إلى فيرنون فزفت البشرى إلى ولدها، ثم همت بأمتعتها فحزمتها، وما هي إلا ساعة حتى كانت الأسرة في طريقها إلى باريس.

صدمت المرأة بالحقيقة المرة ساعة ولجت غرف المسكن الجديد.. صدمها الفارق الشاسع بين المنزل الذي قضت فيه وقتًا طيبًا في فيرنون، وبين هذا المنزل الملبث البارد الذي عششت فيه العناكب، إلا أن ابنها سرى عنها بقوله: «لا تبتئسي.. سأمضي سحابة يومي في العمل، ولن أرجع إلا مساء.. وبذلك أتجنب رطوبة المكان وأتمتع بالدفء والراحة..».

أما تريز فلم تبد اعتراضًا.. لم تنبس بكلمة تكشف عن حقيقة ما يختمر في صدرها، كما أنها لم تثقل على الأم بمطاليبها، فهي راضية بكل شيء، قانعة بما يسر الله لها– هذا ما يبدو عليها، وهذا ما تشير به جميع الدلائل..

وتعاقبت الأيام، وكميل يخفق في كل طلب يقدمه لأرباب الأعمال.. وكان يقضي ساعات النهار برمتها متجولًا في الشوارع ومترددًا على محال الأعمال، يسأل ويستفسر ويستوضح، حتى ضاق صدره وعيل صبره، وجعل يلمح من طرف خفي إلى محاسن العودة إلى

فيرنون.. ولكنه ظفر في نهاية المطاف بوظيفة كاتب في سكة حديد أورلينز بمرتب شهري مقداره مائة فرنك.

فشرع يتوجه كل صباح إلى مقر عمله، وتنزل أمه وزوجته إلى الدكان، لتعملا وتربحا وتضيقا ببعض المشترين.. ويضيق بهما المشترون... وكانت العجوز ألبق من زوج ابنها، كانت تنيرها في طريقة معالجتها لأمور البيع والشراء، ولا تدخر وسعًا في إقناع الشاري بجودة السلعة.

إلا أن تريز التي كانت تعيش في هذا الظلام، وفي هذا الجمود، وفي هذا الصمت الثقيل، وفي هذا الثنائي عن كل لذة وكل عاطفة وكل شهوة، رأت الحياة مملة.. رأتها ممتدة تلقاءها إلى مدى لا نهاية له، عارية خاوية خالية، ليس فيها إلا الفراش البارد تلوذ به متى أغبس الليل، والدكان الرطب تقصده كلما رنقت ذكاء، والفراغ... الفراغ المريع.. الفراغ الذي يتخلله ضباب قاتم متكاثف..

كانت الأيام مملة لا رونق فيها، فطلوع الشمس مثل غروبها، وهطول المطر مثل انقشاع السحب، وساعات النهار مثل ساعات الليل.

أما ليلة الخميس من كل أسبوع فقد كانت الحدث الوحيد الذي يدخل شيئًا من التغيير على هذه الوتيرة الواحدة. يوم الخميس كانت الأسرة تجتمع في ساعة مبكرة من الليل، في غرفة الطعام وحول آنية

الشاي، فتحتسي أكوابه، وتزدرد كل ما حملته معها من الطعام، ولا يأوي أفرادها إلى مضاجعهم قبل الساعة الحادية عشرة.

وجاء إلى باريس ضابط بوليس فيرنون، وكان يحترم مدام راكان ويرتاح إلى عشرتها، فتردد على دكانها، وما لبث حتى أصبح من المشتركين مع أسرتها في اجتماع ليلة الخميس.

كان هذا الكهل يدعى ميشو، وقد أحيل على التقاعد ورتب له معاش شهري، وأصبح أوليفيي وزوجته بعد ذلك من المواظبين على المجيء في ليلة الخميس.. بيد أن قلب تريز لم يمل إلى الشاب المزهو براتبه الكبير الذي كان يتقاضاه من عمله، كما أنها نفرت من زوجته الشاحبة المتداعية المتطامنة، ولم ترتح إليها.

وجاء كميل بضيف جديد يدعى غريفي، كان يشتغل في سكة حديد أورلينز أيضًا، ويشرف على الأعمال التي يؤديها الفتى، وكان مرتبه يزيد على الألفين، ولهذا سال لعاب كميل، وجعل يعلل النفس بقرب موت هذا الشيخ حتى تسنح له فرصة القفز إلى وظيفته.واغتبط غريفي بما لاقاه من حفاوة أفراد الأسرة وترحابهم، فثابر على الحضور في الموعد المضروب.

وهكذا غدا الخميس يوم عيد للأسرة وضيوفها، ففي السابعة مساء تهرع الأم إلى البيت فتضيء المصباح الكبير، وتشعل نار الموقد، وتضع بجانبه قطع الدومينو، وتعد عدة الشاي، وفي الساعة الثامنة يلتقي ميشو

وغريفي في مكان قريب من الدكان، فيدلفان إليه ولا يلبثان أن يصعدا مع الآخرين إلى المنزل، فيأخذ كل منهم مكانه حول المائدة. فإذا جاء أوليفيي وزوجته، اللذان درجا على عادة التأخر عن الموعد، تقوم مدام راكان إلى وعاء الشاي فتصب السائل الحار في الأكواب، ويلقي كميل قطع الدومينو على المائدة، وينصرف الجميع إلى اللعب واحتساء الشاي وقضم الحلواء.

إلا أن تريز كانت بعيدة كل البعد، في روحها وتفكيرها، عن هذه البيئة، فلم تنسجم معهم ولم تنصهر في بوقتهم.. وكانت تتذرع بالصداع، وتحتج بتوعك المزاج لكي تعفي نفسها من الاشتراك في اللعب، فتقعد بعد أن تفوز بأربها في مكانها، وتنقل طرفها بين الوجوه المختلفة، فيخيل إليها أنها ترى هذه الوجوه من خلال سحابة صفراء.. ولا تجد في أي وجه منها إلا ما يثير اشمئزازها ونفورها وسخطها..

وجاء بصحبة كميل ذات خميس شاب مديد القامة عريض المنكبين بسام الثغر، تشع الحياة والصحة من عينيه الواسعتين.. فلما ولجا الدكان هتف كميل قائلًا: «احزري يا أماه من يكون هذا الشاب؟».

فنظرت إليه المرأة نظرة تأمل وترقب، وقدحت زناد فكرها، فلم تتذكر شيئًا عنه.واستأنف كميل يقول: «ألا تتذكرين لوران يا أماه؟ ألا تتذكرين صديقي؟».

فصاحت مدام راكان: «أجل.. أجل.. وإني لأذكره يوم كان يمر بك، فهو ابن لوران الكبير، صاحب المروج السندسية الخضراء، وقد كان آخر عهدي بصاحبك منذ عشرين سنة».

وجلس لوران ونظر فيما يحيط به. وعاد كميل يقول إنه غريب الأطوار، شاذ الطباع، فقد مضى على عملنا معًا سنة ونصف السنة دون أن يعرف أحدنا الآخر.. ولكنه على نقيضي، قوي كالثور، ووظيفته جيدة، وراتبه لا بأس به، فقد درس القانون واحترف الرسم.. أليس كذلك يا لوران.. ألا تمكث معنا الليلة فتشركنا في طعامنا وشرابنا؟

فأجابه الشاب: «ما أحب هذا على قلبي، فتزجيه الوقت معك يثلج صدري..».

ونزع لوران قبعته عن رأسه، واعتدل في جلسته. وانطلقت مدام راكان إلى البيت لتهيئ الطعام، ونظرت تريز إلى الضيف دون أن تبدر منها أقل حركة أو كلمة تشي بخلجات صدرها.

لم يسبق للمرأة الشابة أن رأت رجلًا كاملًا، ولكنها رأته الليلة.. فها هي الرجولة متجسمة في هذا البدن الصحيح.. وها هي الحياة المشرقة تنضح من ثنايا وجهه.. واختلست نظرات الإعجاب إلى جبينه وشعره الفاحم ووجنتيه وشفتيه وأساريره.. وتأملت في عنقه القصير الغليظ المفتول، ثم انتقلت بعينيها إلى يديه الضخمتين اللتين توحيان بما يكمن فيهما من قوة لا عهد لها بمثلها، وخيل إليها أنه يستطيع أن يصرع ثورًا

ويطحن حجرًا.. وارتعشت تريز، ونظرت بشغف ولذة إلى الكتفين والساعدين والساقين، واحمر وجهها واختلجت أهدابها..

واستدار كميل بغتة إلى صديقه وقال: «المعذرة يا لوران، غاب عن بالي تقديمك إلى زوجتي، ألا تتذكر ابنة خالي؟ إنها الآن زوجتي..».

فحدجها لوران بنظر الفاحص وقال: «وكيف لا أعرفها؟» وأحنى لها رأسه.

وانفرجت شفتا تريز عن بسمة طفيفة فحنت هامتها قليلًا، وأغضت بطرفها، ولم تبطئ أن انسحبت من الدكان.

وعلى مائدة الطعام طفق كميل يطرح على صديقه أسئلة مختلفة .. فعلم منه أن الخلاف دب بين الأب والابن منذ خمس سنين، وأن اندلاع النيران سببه تمرد الابن على الأب وعدم إذعان لمشيئته، وتظاهره بأنه منكب على الدرس في كلية الحقوق دون أن يفعل شيئًا من هذا القبيل. فلما عرف الأب الحقيقة خيره بين الطاعة والحرمان، ثم قطع عنه إعانته المالية، وأمره أن يرجع إلى مسقط رأسه إن رام الاحتفاظ برضى والده.. ولكنه أبى ان يذعن وزوال فن الرسم معللًا نفسه ببلوغ المنى.. غير أنه لم يوفق إلى تحصيل الرزق، فاضطر إلى الالتحاق بالوظيفة.

وعقب لوران ضاحكًا: «وسيموت أبي بعد فترة – أرجو أن تقصر – فأرث ماله وعقاره، وأمتع النفس والروح ولا أبخل عليهما بشيء من

أطايب الحياة..».

وكانت قصة لوران عنوانًا لما جبلت عليه نفسه من الخمول والكسل والشهوة والأثرة.. بل كانت شهادة دامغة على أن جسده الضخم لا ينشد إلا الراحة والأكل والشرب والنوم وإشباع الغريزة. دراسة القانون أطارت صوابه، وفكرة خدمة الأرض أطاشت سهامه، فتهرب من هذه وتلك، وارتمى في أحضان الفن لعله يجد فيه ما يغنيه عن الدأب والكدح، ظنًا منه بأن ريشة الرسام لا تعوزها مهارة ولا دراية، وأن النجاح سيكون ولا غرو حليفه...

ولكنه تململ من الرسم وطرق ساعة عضه الجوع بنابه، فهو أبعد ما يكون عن الفن ليصبر صبرًا جميلًا على الحرمان.. وجسمه لم يتم وترعرع ليتحمل ما يتحمله الفنان من شظف العيش وجور الأيام.. وهكذا طوى كشحه عن الرسم، ولم يكربه ذلك مقدار ما آلمه فراق النماذج النسائية الحية اللواتي كان يمرر ريشته المتعثرة على تعاريج جسومهن الناعمة المشتهاة..

وسرعان ما اطمأن إلى عمله الجديد، فقرت عينه بالراتب الذي تقاضاه والمكتب الذي خصص له، ولكنه –كما قال– يتلهف شوقًا إلى الغانيات ويرى بعين خياله صدورهن العارية ونهودهن النافرة وسيقانهن المنسجمة واهتزازة أردافهن المثيرة..

وأجفل ساعة انساق في سرده، وتذكر أن ثمة صبية تصغي إلى ما يقول، نظر إليها مستغفرًا، فألفاها تنصت بإقبال، وتنظر إليه نظرة عميقة غامضة تتكلم بأفصح بيان عما يخامر صدر صاحبتها من مختلف المشاعر والأحاسيس.. وتحول إلى كميل وخاطبه وهو يكتم ضحكة كادت تفلت من بين شفتيه: «أتدري يا كميل أني أتوق إلى رسم صورة لك؟».

فهتف كميل ووجهه يتألق بشرًا: «هذا رائع.. لنبدأ فورًا– صورة كبيرة لي بريشتك.. هذا رائع..».

ودقت الساعة ثماني دقات، ودخل ميشو وغريفي، وتبعهما بعد قليل أوليفيي وزوجته سوزان.

وقدم كميل صديقه لهم فقابلوه بتحفظ وحذر، وما لبث القوم أن جلسوا في مقاعدهم بعد أن أفسحوا له بينهم.

لقد زاد عدد جماعة الخميس.. وحرك القدر الذي كان لهم بالمرصاد أصابعه.. وقهقه ساخرًا..

دأب لوران بعد تلك الليلة على القدوم إلى منزل مدام راكان. كان يقطن في غرفة ضيقة في طريق سان فيكتور، وكان يتلكأ في الرجوع إلى كهفه هذا حتى لا يشعر شعور الملحود في قبر.. وكان كلما صفر من

المال يقضي وقته في التسكع، ثم يعرج على مقهى صغير حقير فيشرب فنجان قهوة ويصعد إلى كهفه رغم أنفه.

فلما اهتدى على بيت مدام راكان أصبح دكانهم منتجعه الوحيد الذي يؤمه كلما حل الليل، كما أصبح بيتهم الصغير، المخلد إلى السكون، فردوسه الذي يقضي فيه لياليه، فأفاد من ذلك توفيرًا وانقطع عن ارتياد المقهى وبذل ثمن فنجان القهوة.. وفوق هذا وذاك فكثيرًا ما كان يحظى بالطعام الساخن يملأ به بطنه فتقر عينه وتنعم نفسه.

وحمل معه في إحدى الليالي معدات التصوير، وسعد كميل بذلك .. وباشر عمله في مخدع الزوجين، واستغرق تصوير خطوط الوجه والرأس سبعة أيام، إلا أنها كانت خطوطًا مغلوطة أشبه بخطوط يصورها غلام يتعلم مبادئ التصوير، لا رسام يدعي المهارة والبراعة والقدرة الخارقة.. وملأ اللوحة بخليط عجيب من الألوان، وبقعها ولطخها، ومع ذلك فقد كان يبتسم راضيًا مسرورًا كلما أعربت مدام راكان عن إعجابها بفنه، وكلما ندت من صدر كميل آه دهشة وذهول..

فإذا ما نظر في الرسم ورأى النقص والعيب، ولحظ الفارق بينه وبين الأصل، وتدارك قائلًا، كأنه يريد طمأنة الابن والأم: صبرًا.. صبرًا.. عما قليل تشاهدان ما قل نظيره وانعدم مثيله...

حجج والمعاذير لتغادر الدكان وتصعد إلى المخدع، فتجلس مقطبة مفكرة وأنشأت تريز منذ اللحظة الأولى تلازم مخدع النوم، فتتوسل

بأوهى ال بادية الشحوب، وتتبع حركات لوران بانتباه، وتقيد لحظها به، وكأن قوة خفية تجذبها نحوه، فهي لا تتحرك من مجلسها، بل تبقى ساكنة جامدة كأنها سمرت إلى المقعد..

وكان لوران يلتف إليها بين الفينة والفينة، فيبتسم في وجهها ويسألها رأيها في الرسم.. فكانت كلما ألقى عليها السؤال تتعلثم في إجابتها فتتردد كلماتها في حلقها مبهمة خفية، حتى أيقن الشاب الخالي البال أنه استطلع طلعها، وألم بحقيقتها، وسبر غور نفسها..

ولدى أوبته إلى منزله في كل ليلة، كان لوران يحدث نفسه حديثًا طويلًا، فيناقشها الحساب فيما إذا كان يليق به أن يتخذ من تريز

وقد طالما ناجى نفسه قائلًا: «هذه المرأة الصغيرة في متناول يدي.. إنها طوع أمري.. ومتى شئت أضحت خليلتي.. فهي لا تحول ناظريها عني، وهي لا تفتأ تحدق إلى وجهي وكأنها تزنني وتروزني.. وكلما تلاقت عيوننا ارتعشت وارتعدت.. فلا مراء أنها تبحث عن عاشق يطفئ نار وجدها، فعيناها تنطقان بذلك، وما زوجها كميل بالرجل الكامل، بل هو شاب متخاذل مستخذ لا يقوى على إشباع غريزتها..».

وضحك لوران ضحكة طويلة، وهو يناجي نفسه، حينما رأى بعيني خياله وجه صديقه الساهم، وطرفه المظلم وجسده الواهن المعروق العظام..

واستطرد يحدث نفسه: «إنها ولا غرو ضجرة بالحياة في هذا المكان، برمة بزوجها، وأم زوجها، وأخالها تنتظر على أحر من الجمر أول إشارة تصدر عني لكي ترتمي في أحضاني.. فلم لا أكون عشيقها الأثير؟ لم أتيح الفرصة لغيري من الرجال كي يتمتع بهذه الأنثى المتلعجة؟».

وتوقف يرقب مياه السين المتدفقة في خرير أبدي، وهز رأسه وهو يحدث النهر العظيم: «سأحاول.. سأقبلها في أول فرصة تسنح.. ولا أشك في أنها ستذعن إذعانًا سريعًا وترضخ على التو.. إنها قبيحة، ما في ذلك ريب– فأنفها طويل أقنى، وفمها كبير، وجبتها ضيقة، وليس في فؤادي من حبها نصيب، وعليه فيخلق بي أن أقلب الأمر على مختلف

وقرر في ما بينه وبين نفسه أن يتروى قبل الإقدام، ويفكر قبل الوثوب إلى الخصم، ولا يفعل شيئًا إلا متى أيقن أنه لن يضام، وأن الفوائد التي يجنيها تطغى على المضار التي يصاب بها..

إن تريز في نظره ورأيه لا تمتاز بالرواء، ولا يبهره منها جمال ولا بهاء، غير أنها لن تكلفه شروى نقير.. وفوق ذلك فالنساء اللاتي اشترى اللذة معهن بالمال لا يفقنها حسنًا..

وهكذا حفزه حب الاقتصاد إلى اشتهاء زوجة صديقه، وأذكى ابتعاده عن النساء أمدًا طويلًا نار شهوته، وجعله يعقد العزم على بلوغ الوطر والحصول على المرام، إن أمن في العاقبة فضيحة.

أوشك لوران الرسم أن يتم العمل فيه، ومع ذلك لم يهيئ له القدر تلك الفرصة المبتغاة.. فكميل لا يغادر المخدع دقيقة واحدة، ولا مفر له من الجهر بأن الرسم قد استوفى حقه وبلغ كماله.. فلما أعلن ذلك أبدت مدام راكان رغبتها في الاحتفال بهذه المناسبة السعيدة، فيطعمون ما لذ وطاب، ويشربون الأنخاب، نخب الفنان الموهوب، والصورة الرائعة، وصاحب الصورة الحبيب..

وحينما استعرضت الأسرة عمله في اليوم التالي، ونظروا ملياً إلى الرسم الباهت الرديء الصنع، الملطخ في مواضع كثيرة، الذي بدا فيه كميل أشبه برجل غريق فارقته الحياة، استطير هو وأمه سرورًا، وصاح متحمسًا سعيدا : «سقاك الله يا لوران.. لقد أبدعت..».

وانطلق من فوره ليحضر خمرًا، وهبطت أمه إلى الدكان لتتم عملًا، وأدرك لوران الفنان الدعي أن هذه هي فرصته التي تشوفها، وشعر أنه لم يعد يملك الصبر عن اجتناء ما هفت إليه نفسه..

تريز.. نادتها شهوته المشبوبة.. تريز... صرخت رغبته المتحفزة.. وشخصت تريز إلى لا شيء، وحملقت في لا شيء، ولاح عليها كأنها تنتظر.. تنتظر.. تنتظر.. وأهابت به نفسه الظامئة الأمارة قائلة: «أسرع

ويلك، أسرع.. قبل أن يقفل كميل راجعًا فتتهدم بذلك صروح آمالك..».

وأطاع الهوى غافلًا عن الشرف، وفي أقرب من لمح البصر أطبق عليها فضمها إلى صدره وأوسعها تقبيلًا.. فنهته تريز وقاومته، إلا أن مقاومتها همدت، وسرعان ما رضخت واستسلمت.. وزاغت عن المحجة، فارتمت على أرض الغرفة، ولم يجر بينهما كلام، ولم يجر ما يكدر عليهما الظفر بغنيمتهما.. وقضيا وطرهما..

لم تبلغ الخيانة منهما المشقة.. لم يستحيا من خداعهما وخيانتهما. وأوهما الزوج المنتهك في عرضه، وأمه الطيبة القلب المؤمنة بنزاهة زوجة ابنها وصديق ابنها وصديقه، خلاف ما أخفيا.

منذ البدء أحس العاشقان أن لا غنى لهما الواحد عن الآخر، وأن القضاء والقدر جمعهما معًا مظهرًا بذلك ما هو ثابت أو ما قدر أن يكون ملزمًا لكليهما.. فلم يحبسهما شيء عن الاجتماع، وسقطت إلى الحضيض تلك السجف التي كانت تفصل الواحد منهما عن الآخر، فأفرطا في ذنوبهما، وتماديا في النشوة والخيانة، وعلقا يتبادلان القبل دون وجل أو توجس، وكأن علاقتهما ليست وليدة أيام بل ثمرة أعوام وأعوام.. واشتعلت النار في جسد لوران، فكان لا يقضي منها وطرًا إلا ويكر راجعًا في اليوم التالي وهو أكثر ما يكون شوقًا ورغبة..

واتفقا على طريقة اجتماعهما للنهل من اللذة، فكان لوران يسترق خطاه إلى مخدع الزوج من الطريق الخارجي، فيمكث مع تريز ساعة يقتطفان في خلالها اللذة، بينما يكون كميل منهمكًا في عمله، ومدام راكان منشغلة في دكانها.وتذرع لوران بالأعذار ينتحلها كل يوم ليغيب ساعتين عن المكتب، فلا يكاد يلم بالممر حتى تثور عاطفته، فيلغي حذره ويصعد عجلًا مسرعًا خافق القلب..

وعجب لنفسه كيف انقلبت نظرته إليها، فأصبح يراها غنية بحسنها وجمالها عن كل زينة.. عجب لنفسه كيف كلف بها وتولع بحبها، ووجد فيها ضالته المنشودة، وجد القوة والقدرة والفتنة، وزاد حبه ضرامًا، زاد حبه استعارًا مع قبلة يطبعها على فمها.. فوجهها الجامد الذي لا تختلج فيه عضلة.. أصبح وجه امرأة ولهها الحب وتيمها الغرام.. ونظراتها القانطة اليائسة الكليلة، أصبحت خليطًا من نظرات الوحش والإنسان.. والهمود الذي وسمها بميسمه استحال حركة مفعمة حيوية ونشاطًا.. والشفتان الباهتتان الحائلتان الذابلتان، أصبحتا تشعان بنور غريب عجيب يشده ويذهل ويستحوذ على اللب..

لم يعد قلبه يطاوعه على الصبر، ولم يعقه عائق عن امتطاء اللهو كل يوم.. واستمر على غيه واستمرأ مرعى فجوره وفسقه، فهو لم يعاشر امرأة كتريز من قبل– فالقبلة الأولى أججت النار المتوارية في صدرها، وهيجت الوحش الجائع الرابض في جسدها.. وكأنها استفاقت من حلم، وكأنها ولدت من جديد ساعة تبينت البون الشاسع بين يدي زوجها

الهزيلتين، ويدي هذا الرجل القوي.. وتفجرت غرائزها كأقوى ما يكون، وسرت في عروقها دماء أمها الإفريقية، وصب في قلبها حارًا دافقًا.. فوهبت إليه نفسها وجسدها دون حياء، وقالت للضمير وللشرف وللوفاء: سحقًا.. أنا محرومة أنصفني الدهر، أنا مهيضة الجناح رأبت الأيام كسري.. وقالت للوران الحبيب – عود على بدء.. إلى الملتقى، إلى الملتقى..

هذه المرأة التي كبتت البيئة مشاعرها، استعادت أخيرًا حريتها، بل استعادت طبيعتها، فتكشفت رغباتها، وسفرت حقيقتها، ومشت في الطريق الذي كتب عليها.

كانت تحيط عنق حبيبها أحيانًا بذراعيها، وتهمس في أذنه بصوت خفيض فيه رنة أسف على ما فاتها، ولحن فرح على ما لحق بها: «أواه أيها الحبيب.. لو تعلم كم تألمت؟ لو تعلم كم قاسيت؟.. كم ترمضت على نيران العذاب؟ لقد ترعرعت في غرفة مغلقة مرتجة، يشيع في جوها المرض، فشاركت "كميل" فراشه وأنا صغيرة، وشاطرته فراشه وأنا كبيرة، فكنت أبتعد عنه ما وسعني الفراش.. كنت أكتم أنفاسي بيدي حتى لا تفعم أنفي رائحة المرض المنبعثة من جسده.. كان حقودًا عنيدًا صلبًا لا يتناول الدواء إلا متى حذوت حذوه... فكنت أشرب الدواء إكراما لعمتي، وأعجب الآن كيف لم يتخر مني الموت لكثرة ما تجرعت من عقاقير وأدوية.. لقد حرماني كل شيء يا حبيبي، حرماني الحرية والحياة والحب..».

وعلا صوت نشيجها وهي تبثه أشجانها وتفضي إليه بآلامها، ثم قالت وهي تكفكف عبراتها:

«ولست أتمنى لهما إلا الخير، فقد كفلاني وتعهداني وكفياني العوز والمسبغة، ولكنني كنت أتمنى لو أنهما تركاني وشأني لأقاسي شظف العيش، بدل أن أقاسي مرارة السجن في غرفة مريض دنفته العلة... كنت أحلم بالحرية وبأمي الإفريقية، وبالنهر والغابة، وبالشمس المشرقة والهواء الطلق.

«وكنت أنتظرك منذ حين.. كنت أنتظرك دون أن أدري.. وكنت إذا طاش حلمي وضاق بالدنيا ذرعي، أتحمل كل الأيام لأن إحساسًا خفيًا كان يحفزني على الصبر..

ولن تصدق مهما سقت من حجج ما تجشمته من مكاره وآلام، فقد كنت طول وقتي أصانع وأداهن وأجامل، حتى غدوت متلونة متصنعة، أبطن أمرًا وأظهر سواه..

«وإني لأعجب كيف قويت على الحياة وبقي في عروقي دماء.. فقد طالما أطرقت إلى الأرض، وقد طالما عشت منكسة الرأس مغضية الطرف، ألبس على وجهي قناع البله والعته أسوة بهاما.. وعندما رأيتني خلتني سليبة العقل فاقدة الحجى.. وأنت على حق فيما ذهبت إليه من ظنون، فقد حطمتني الأيام، وتطوع زوجتي وتطوعت عمتي للقضاء على البقية الباقية من ذكائي وفطنتي.

«ما أكثر ما راودتني نفسي اليائسة أن اقذف بنفسي في نهر السين، وكنت قبل أن تنهار مقاومتي أقضي الليالي الطوال مسهدة لا يكحل الكرى جفنين مؤرقة أعض بأسناني على الوسادة حتى لا يسمح أحد زفراتي، ولم أبخل على جسدي بالضرب... كنت أوسع نفسي ضربًا وأصمها بالجبن والخور والاستخذاء... وكانت النيران التي تلظيت على وقدها تلهب جسدي، وسولت لي نفسي الخائرة أن أفر من هذا الجحيم.. حدثتني روحي اللاغبة أن أهيم على وجهي في الفلوات والقفار، وأن أنحو نحو وحوش الغاب، فأنطلق من إساري وأتجه قدمًا إلى الشمس... إلى الشمس... وأتنفس الهواء... بيد أن شجاعتي خذلتني، فقد أحالاني إلى حيوان أليف بلطفهما اللين الخدع، وتوددهما الكريه الذي تتقزز منه النفس. وطفقت أكذب، جنحت إلى الكذب، تخرصت وأفكت، وغدا الحرمان رداء جديدًا تلفعت به..

لقد أدنى خلقهم إلى العذاب وجرعني من الصاب، ولكنني لذت بالصمت والسكون، وإن كنت أحلم كل الليل بالضرب والهدم والتحطيم..

ولا أدري كيف تزوجت هذا الرجل الذي حملته أمته وهنًا على وهن؟ لا أدري؟ ولكني ذقت وبال انقيادي الأعمى وعشت فريسة ضاغوط يجثم على صدري... فهل رق قلبي له لأنه مثل الحيوان الصغير؟ هل أشفقت عليه لأنه أقرب إلى طفل قصير كليل منه إلى شاب طويل ذي قوة وحول؟

أما أنت... أنت يا أحب الناس إلي... ماذا أقول عنك؟ وبماذا أصفك؟ لقد أحببتك مع أن منظرك أثارني ومل قلبي حفيظة... ومع ذلك كنت أنتظر مجيئك بفارغ الصبر، لأمشي حولك، وأدع ملابسي تلامس ملابسك... وخيل إلي في الأيام الأولى أن دماءك كانت تطلق علي موجات محرقة لافحة... أو تذكر الأيام الأخيرة التي كنت ترسم إبانها؟ إن قوة القدر كانت تجذبني نحوك جذبًا شديدًا، فكنت أتنشق الهواء المشبع برائحتك في حبور وجذل... وعلمت، بل أيقنت آنذاك، أني كنت أستجدي القبل، فخجلت من هذه العبودية التي كبلتني بأصفادها من جديد، وأيقنت أني سأكبو... واستسلمت دون حجاج ولا لجاج..».

غادرها لوران في ذلك اليوم وانطلق إلى حجرته وهو عرضة لمختلف الأفكار والهواجس... ولكنه رجع إليها في اليوم التالي وهو أشد ما يكون شوقًا إلى جسدها الغض وثغرها المتضرم بنار لاسعة كاوية.

وتكررت لقاءاتهما، وزاد غرامهما عنفًا، وارتمت تريز في أحضان الرذيلة ضاربة عرض الحائط بكل شيء، معرضة عن الهوة السحيقة الفاغرة فاها التي كانت تنزلق إليها تباعًا. ومع أن عشيقها كان يطلب منها أن تلزم جانب الحذر والحيطة، إلا أنها كانت تسخر منه وتبدد مخاوفه بضحكاتها العريضة.

وتحققت مخاوف لوران يومًا، فصعدت عمتها إلى البيت، فارتعدت فرائصه ساعة سمع وطء خطاها، ولكن تريز ضحكت ملء فمها، ثم

جرته إلى مؤخرة السرير وغطته بكومة من الثياب.

وفتحت مدام راكان الباب بهدوء حتى لا تقلق راحة زوجة ابنها المتعبة، وقالت ترمقها بنظرة العطف والوداد: "عزيزتي تريز.. هل أنت مريضة؟".

فنظرت تريز إليها وتأوهت وتململت ثم قالت: "تبًّا لهذا الصداع.. ناشدتك يا عمتّاه أن تدعيني وشأني..".

وذهبت العجوز في سبيلها، وقرقرت تريز ضاحكة، ووثب لوران من مكانه، وتعانق العاشقان..

وحانت منهما التفاتة فوقع طرفاهما على القط فرنسوا، فقالت تريز ضاحكة: "يخيل إليّ أنه يراقبنا، وأنه سيشي الليلة بنا إلى كميل..".

ونظر لوران إلى القط واقشعر بدنه..

وأردفت تريز: "سيقف على قائمتيه، فيشير إلى بمخلب وإليك بمخلب، ويصيح بملء فمه: هذا الرجل وهذه المرأة يتبادلان مئات القبلات كل يوم.. وقد نسيا أمري.. وبما أن علاقتهما الأثيمة تزعجني، فأنا أطلب إليك أن تزج بهما في السجن"..

واستمرت تريز تمثّل دور القط، واستمر القط ينظر إليها ويرقب حركتها.

أما لوران فقد داخله خوف شديد، فهو لم يقع بعد تحت سيطرة حبيبته، وهو لا يزال يضطرب هلعًا كلما فكّر بما قد يحدث له إن انكشف سره واطّلع كميل على خيانته.

قرّت عين لوران بما حصل عليه، فقد تعلق كميل به وجعل يصحبه بعد انتهاء العمل إلى الدكان، ومالت إليه مدام راكان وأولته حبها، وأرمته كما ترأم ابنها، وأشفقت عليه ورثت له، وأفهمته بصريح العبارة ان مكانه على مائدة الطعام محفوظ ليل نهار..

واستفاد الشاب من هذا الكرم، فأصبح لا يفارق "كميل"، فهو يلازمه بعد خروجها من المكتب، فيتجهان إلى رصيف الميناء، ليفضي كل منهما إلى صاحبه بأفكاره، ثم ليعرجا بعد ساعة أو ساعتين على بيت مدام راكان ليتذوقا ما كهته يداها من طعام شهي.

كان لوران يلمّ بالدكان كما يلمّ بداره، وكان يدخن ويبصق على الأرض ويتكلم ويقهقه دون تحرج، وكأنه موجود في حجرته، أو بين ذويه وأسرته. ولم يأبه لوجود تريز، أو يتخيّر كلماته وحركاته، بل كان يخاطبها بلهجة الصديق وصراحة الشقيق، دون أن تطرف له عين أو يختلج هدب، فيضحك كميل ملء فمه ويستغرق في القهقهة، ثم ينثني إلى زوجه فيلومها في شيء من العنف على تقطيبها ووجومها، ويحثها على مقابلة صراحة لوران بصراحة مثلها، وبشاشته بوجه طلق وبشاشة لا تقل عن بشاشته.

لقد غدا لوران عشيق الزوجة وصديق الزوج، وابن الأم المدلّل.وما اتفق أن صادف مثل هذه المتعة في حياته، ما اتفق أن ظفر بمثل هذه البلهنية.. فهو يعيش في رغد لا يشوب صفاءه كدر، وهو يحيا هانئًا موطد العيش، أمنيًا من الغد، واثقًا من لقمته، مطمئنًا إلى إشباع غريزته، قانعًا.. قانعًا بما قسم له، وما أغدق عليه، وما وفره الشيطان لشخصه..

وعلى نقيضه كانت تريز..

نهلت الصبية المضطرمة الحشا من ينبوع الغرام، وأقبلت بكليتها على الفسق الذي تردت في حمأته كما يقبل الصادي على جب فيه ماء عذب سلسل.. ولكنها اضطرت إلى تمثيل دورها.. اضطرت إلى تمثيل شخصيتين وتقمص شخصيتين.. فأبدعت وأجادت. فهي هي تريز الشاردة الفكر المقطبة الحاجبين الممعنة في التحليق في سماء أحلامها.. وهي هي المتقنّعة بقناع الموت الذي يجمد وجهها حتى ليبدو وكأنه الموت بالذات.. وهي هي تريز المتلاطمة المشاعر، المتقلبة على جمر الحب ساعة تخلو حبيبها ويخلو معها حبيبها..

وطغت عليها الفرحة، فهي تنتقم ممن فرض عليها حياة الكبت، وتعوّض ما فاتها، فتخدع "كميل"، وتختل أمه، ويسفر خدعها وختلها عن لذة عارمة طاغية جبارة لا عهد لها بمثلها..

واستمرت الحال ثمانية شهور على هذا المنوال، واقتطف العاشقان من ثمرات الصبوة أنضجها، وجرعا من أكؤس الهوى أطيبها، وامتزج

الجسمان.. واندمج القلبان.. وانصهر الروحان في بوتقة الرجس والفجور، حتى أعماها الخنا عن كل معنى من معاني الشرف والفضيلة والكرامة..

وأقبل رئيس لوران ذات يوم عليه وهو مصعّر الخد، محمرّ العين، بعد أن أسرف الشاب في تغيبه عن العمل، فأنذره بالفصل من الخدمة والحرمان من الأجر إن هو طلب الإذن في مبارحة المكتب، فالتاعب نفسه، وكاد لولا بقية من جلد وعزم، أن يخرج عن طوره فيخر على الأرض مغشيًا عليه..

في مساء ذلك اليوم الذي تخلف فيه كارها عن الاجتماع بحبيبته، استقبلته تريز بوجه كالح متجهم وعينين ينبثق منهما شرر الحنق. فاحتار في أمره، وتلبث يتحين الفرصة الملائمة ليطلعها على الحقيقة، فلما سنحت له الفرصة قال: "أي تريز، قلب لنا الدهر ظهر المجن وحال بيني وبينك، فلم يعد في إمكاني مغادرة مكاني.. فما العمل؟ ما العمل؟".

ورجع كميل بعد قضاء حاجته، فأطبقت تريز فمها على كلام كثير كان لسانها يوشك أن ينطق به. وفكرت فيما تكأد سبيل لذتها، فكرت بالسعادة الزائلة، فخفق قلبها.. فكرت باللذة المولية فطارت نفسها شعاعاً... ولم تشأ أن تصدق ما سمعته من لوران، فهل يمكن أن يعيقها عائق عن المضي في طريق الغواية التي استمرأتها ؟

وأمضت الليل مسهدة مفتحة العينين، تتقلب على فراشها وتتأوه، وتضع الخطط الخيالية التي يتعذر تطبيقها..

واستطاعت في ليلة الخميس أن تحدث لوران على انفراد دقيقة واحدة، ولكنها ازدادت حيرة وبلبلة، وازداد قلب لوران وجيبًا واشتعالًا، ولم يجدا لعاطفتهما متنفسًا، ولم يعثر على طريقة يعيدان بها المياه إلى مجاريها.

جنون العشق

ما أشقى الحرمان على قلوب العاشقين.. ما أشقى قلوب العاشقين متى فصل بينهما أمر.. ومضى أسبوعان آخران والعاشقان يتحرقان على وقد من نار جهنم، شعر الشاب إبانها أكثر من أي وقت مضى بحاجته الملحة إلى تريز، بحاجته الرعناء الهوجاء المجنونة التي لا يثنيها جدا أو نقاش.. وناداهما الدم– أهاب بهما الدم الذي اختلطت فيه الشهوات–أن يعودا إلى ما درجا عليه، ولكن.. أنى لهما أن يظفرا بالمنى؟

وتلظى جنونهما، وأصبح لوران لا يجر على المجيء إلى الدكان، أصبح يخشى المجيء لأنه يخاف من نفسه، ويخاف من نزوته، ويخاف قد تجره رغبته عليه من المتاعب الوخيمة العواقب–فقد تغلغلت تريز رويداً رويداً إلى أعماقه.. وإلى سويدائه.. إلى قطرات دمائه.. فامتلأ قلبه بها حتى فاض وامتزج دمه بحبها كما يمتزج الماء بالراح، وأوشك صبره أن ينفد، وكاد صدره يضيق بمهجته.. وأتاه الفرج في رقعة صغيرة من تريز تطلب منه فيها أن يلازم بيته في الساعة الثامنة من مساء اليوم التالي.

وما كاد يغادر المكتب في اليوم التالي حتى تخلص من كميل بحجة التعب وهرول صاعدًا إلى غرفته، وعلق ينتظر وهو على أحر من الجمر قدوم تريز.

وتريز كذلك استنبطت حيلة، وكانت حيلتها لا تنطلي على أشخاص ذوي فطنة وذكاء. وما إن حانت الساعة الثامنة حتى أهرعت إلى حجرة حبيبها، فولجت الكهف الصغير، وانحنت على السرير الذي كان يضطجع فيه لوران.

وهبت نسمة رخاء من النافذة الضيقة، فأنعشت الحبيبين وملأت أعطافهما قوة وأملًا، وملأت جوانحهما سعادة واستبشارًا.

وقضى العاشقان ساعتين لم يشعرا كيف مضت، ولما جاءت الساعة العاشرة هبت تريز من مكانها مذعورة منبهرة، وقالت وهي تهز رأسها حسرة: "لا بد من الذهاب، وإلا افتضح المخفي وبان الأمر لكل ذي نظر وعين..".

ورنا إليها لوران متضرعًا وقال:"ما أصعب العيش يا حبيبتي.. أليس في وسعك أن تبعدي "كميل" عنك، أن تبعثي به إلى الضواحي؟".

فقالت متضورة متململة: "وهل في طوقي ذلك؟ هل في طوقي إرسال رجل مثل كميل إلى مكان بعيد عن باريس؟ دون هذا المراد خرق القتاد.. إن له رحلة واحدة.. رحلة فحسب.. أتعلم إلى أين؟ إلى

الجحيم.. إلى الجحيم.. ولكنه لن يموت، بلى لن يموت.. ستغلب على الموت كما تغلب دائمًا..".

وساد الصمت، وتسربت إلى الحجرة نسمة أخرى لطيفة منعشة. وقال لوران كمن يستفيق من أضغاث: "وما باله لا يموت؟ لم لا يموت؟..".

وارتعدت فرائص المرأة الصغيرة ونظرت إلى خليلها، ثم أجالت طرفها في الغرفة الحقيرة.. واستتلى: "لقد زارني طيفك في ليلة البارحة وقضى الليل بطوله معي، وفي الصباح تنبهت من رقادي على قبلتك.. فلما ألفيت نفسي وحيدًا صرخت من الوجد.. أتفهمين؟...

"أجل..أجل..". وأطبقت على فمه وأخذت تتأوه وتنشج وتقبله، وتكاد شفتاها تفترسان شفتيه. وقال: "أواه.. لو جاءه الموت..". "إذا مات تزوجنا.. وتمتعنا بحياتنا وحريتنا.." "يموت الناس أحيانًا، ولكن من تستبقيه الحياة يقاسي من العذاب مره ويتذوق علقمه".

حدقت تريز بنظرة غامضة عميقة وقالت:"إلا أن وسائل الموت المصطنعة يكمن فيها الخطر والهول، هناك حوادث طارئة تودي بالإنسان– صدمة قاتلة.. سقطة مردية، حجر ضخم يحطم الجمجمة..".

وتبادلا النظرات وقرأ كل منهما في عيني صاحبه كلمات وكلمات.. وانثنت تريز إلى الباب واندفعت من الحجرة بسرعة وهي تقول: "أنا لك ما حييت، فافعل ما تريد".

وعاد الرجل إلى الاضطجاع في الفراش الدافئ برائحة حبيبته، وجعل يفكر بالقتل.. وانتصبت من قيودها غريزة كامنة في أحشائه، غريزة لم يكتب لها إلا الكبت من قبل حطمت قيودها.. غريزة القتل التي جبلت مع طينته وطفقت تحثه على التخلص من كميل... وتحضه على تخرم أنفاس هذا الشاب العليل للظفر بامرأته.

وأنشأ يضع الخطط.. اتجه تفكيره إلى أبيه الشيخ الذي تحدى الموت وما برح يتحداه، وتراءى له أنه سيقضي عشر سنين أخرى في قيد الحياة، فيحرمه بذلك من تراثه وماله، ويضطره إلى معاناة شظف العيش عشر سنين أخرى. فإذا ما بنى على تريز بعد الموت كميل، تؤول ثروة الأم راكان إليه، فيستقيل من عمله ويقضي أيامه في لهو وتبطل.

وأوت تريز إلى مضجعها بعد وصولها إلى البيت، وأشاحت بوجهها عن زوجها المستغرق في النوم، وهي تود لو دفعت أصابعها في عينيه، أو غرزتها في وجهه، أو قبضت بيد من حديد على مخنقه، وضغطت وضغطت لتستل روحه من بين ضلوعه. إنها تنشد الحياة والتمتع بمباهجها وملاذها، فما بال هذا الزوج الممجوج يحرمها منها؟ ما باله يقف حجر عثرة في طريق سعادتها؟.

واستولى عليها الكرى فنامت. وألمت بها الرؤى، فإذا بكميل ميت مدرج بكفنه، وإذا بلوران يحتل مكانه وينام في مضجعه. ومضت أسابيع ثلاثة لم يستطع الحبيبان إبانها أن يحتالا بحيلة ليجتمعا ويطفئا نار غرامهما.. فكان لوران يجلس في الدكان الملبث وهو يصفر أو يومئ أو يشير، فترمي له تريز ببصرها وكأنها تعلم ما تنطوي عليه حركاته وإشاراته من الحنين المكتوم والشوق المخنوق. ولم يزالا على ذلك حتى ضاق صدرهما، وعيل صبرهما.

ولم يغنهما شيء عن هذا الحرمان، وعاد تجملهما بالصبر وبالا عليهما. كانت الكراهية تملأ تريز من زوجها كلما قرب منها أو حدثها، وكان متى حملها على مرافقته يوم الأحد في نزهة ذهبت معه رغم أنفها، فإذا ما ذهبت معه في جولته الأسبوعية، ذرعا الشوارع بتمهل وهو متأبط ذراعها. وكان السرور يطغى على قلبه كما التقى صديقا أو زميلًا فيقدمه إلى زوجته ولسان حاله يقول:

"انظر، ها أنا بلغت من الدنيا جسيمًا من الأمور، وها هي زوجتي الدليل على ما بلغت من المنى، فلم لا أغتر؟ وهل في ذلك ملامة علي؟".

ولكنهما عندما كانا يشخصان إلى سان أوين ليزجيا بضع ساعات من نهارهما على ضفة السين، كانت تريز تنسى نفورها وكراهيتها وتستعيد إلى الذاكرة تلك الأيام الحلوة التي رتعت فيها على ضفاف النهر إبان

إقامتهم في فيرنون، حين كانت طفلة وادعة هانئة .. ثم إنه لما وثق بصديقه لوران وأنس به واطمأن إليه في سره وعلنه، جعل يصطحبه معه كلما انتجع النهر هو وزوجته..

ودعاه في يوم من أيام الأحد إلى مرافقتهما، فلبى لوران الدعوة، وانطلق الثلاثة في الساعة العاشرة صباحًا إلى سان أوين.

كانت السماء صافية الأديم، والشمس دافئة، والريح معتدلة تهب على الوجود فتمسها مسًا خفيفًا منعشًا. وما حانت ساعة الظهيرة حتى كانوا جالسين في ظل دوحة عظيمة وارفة.

وطفق كميل يسرد على الحبيبين قصصه التافهة المعنى والمبنى، وما لبث الرجل، كان الرجلان يكتمان في صدريهما غير الذي يظهرانه، إلى أن توسد زوجها الحشائش الخضراء واستغرق في النوم وعلا غطيطه بعد قليل، فقام لوران من مكانه ودنا من تريز، ورنا إليها بعينين متضرعتين، وكأنه يطلب أن تسعفه وتمنحه.. وما لبث أن انطرح أرضًا وشرع يقبل قدمها وساقها، ويضم إلى صدره هذه الساق البضة. وغلى الدم في عروقه، فقد ملأت خياشيمه الرائحة المتضوعة من جسد تريز، وشعر بحافز عظيم يحثه على احتوائها بين ذراعيه وضمها إلى صدره، وإغراق روحه الظامئة في روحها المتعطشة. ولكنه لم يجسر على ذلك، فالزوج ثقيل الظل قد يستفيق فجأة من رقاده، فيفقد تريز إلى الأبد..

وكأنما أرهبت فكرة الخسارة نفسه وأدخلت على قلبه الخوف والهلع، فانتصب واقفًا وابتعد عن المرأة التي يحب ويهوى، واتكأ على شجرة ضخمة، ونظر غليها ونظرت إليه. وفكر الاثنان، وأشاحت تريز وجهها عنه، وشخصت إلى الفضاء وهي لا تزال تقدح زند الفكر..

ارتعد جسد لوران، وعجب لهذا الشرود الذي استولى على محبوبته، ثم خطا خطوتين من كميل ورفع قدمه كأنه يروم سحق رأسه.. ولكنه لم يفعل ما سولته له نفسه، بل تراجع إلى الوراء ومشى إلى النهر، وجعل يتأمل في المياه المتدفقة، ويضع خططه لعمل يأمن على نفسه تبعته.

ولما أركن إلى ما عول عليه بعد ان أجهد نفسه في الفكر، انقلب راجعًا وفي عينيه نظرة من علق قلبه بالغايات، وفي أساريره علامات من قلت حسرته بعد العزم واليقين. لقد بت الأمر، وسينجح في ذر الرماد في العيون، ويعيش بقية أيامه مع تريز كزوج موفور الكرامة لا حسيب عليه ولا رقيب..

وأقبل على النائم المستأمن، فعابث أنفه بغصن صغير، فهب الراقد مذعورًا، ولكنه ما لبث أن أخذ يضحك، ويربت كتف لوران، ويطبن في مدحه والثناء على روحه الخفيفة وظرفه ودعابته..

وقصدوا بعد قليل مطعمًا من المطاعم المنبثة بكثرة على ضفة النهر، فلاذوا بمائدة صغيرة وهم يزمعون أن يطعموا. غير أن لوران التفت

بغتة إلى صديقه وقال: "ما رأيك يا كميل في نزهة نهرية تزيد من شهيتنا؟".

فقال كميل:"يطيب لي ذلك، إلا أن تريز كما أرى جائعة ". فقاطعته زوجته قائلة: "لا، لا.. لعمري إنها فكرة لا أشتهي خيرًا منها، فهلم هلم..." ونظرت في وجه لوران وأدركت ما يضمره، فاقشعر جلدها وارتعدت فريصتها..

وهب الثلاثة واقفين، وغادروا مائدتهم بعد أن أمروا الساقي أن يعد لهم ما لذ وطاب من الأطعمة، ثم صعدوا إلى قارب صغير شرع لوران يجذفه حتى ابتعد بهم عن الضفة.

وكانت الشمس آنذاك في الطفل، وقد أخذ الغسق يبين في الأفق البعيد. ومضت ساعة والقارب ينساب في يسر على صفحة الماء، وأرخى لوران المجذافين من يديه ووقف يتأمل في الجزيرة الصغيرة التي انعكست عليها تلك الحمرة القانئة المكتسية بها سحب السماء.وساد الصمت، وجنحت الشمس إلى المغيب، وغامت المرئيات أو كادت تغيم، ودخل القارب في مكانه يضيق فيه مجرى النهر. وارتفع صوت غناء، واستدار لوران بغتة، فحمل كميل من وسطه، فقهقه الأخير ضاحكًت وقال: "ويحك يا لوران اتركني لا تدغدغني وإلا سقطت في الماء..".

فشدد لوران من ضغطه على الخصر الضامر، ودفع كميل إلى الأمام، فالتفت الفتى متعجبًا، فوقع طرفه على وجه صديقه المتقلص العضلات، فلم يفهم، وانتابه رعب هائل، وأراد أن يصيح.. أن يصرخ.. ولكنه شعر بيد تكتم أنفاسه، ثم أحس باليد الخانقة تهبط إلى عنقه فتعصره عصرًا..

وبغريزة الحيوان الذي تدهمه رغبة القتال نهض على ركبته، وتشبث بحافة القارب، وناضل وقاوم بيأس وقنوط واستماتة، وصاح بصوت مريع متحشرج: "تريز.... تريز....".

ونظرت إليه الزوجة الصغيرة وأنشبت أظفارها في مقعدها، وحاولت أن تغمض عينيها، ولكنها حملقت بعينيها.. حملقت في الرجلين– في الرجل المقبل على الموت، وفي الرجل الذي قيضه الموت رسولًا لنقمته وبطشه...

وارتفعت الصيحة مرة أخرى تردد متألمة مستنجدة مستصرخة: "تريز... تريز...".

فأصابها الهلع وملأ شغافها الفزع، وانبجست الدموع من مقلتيها، وسحت من عينيها غزيرة، ثم دفنت وجهها في راحتيها، وتشنجت أعصابها، وأصابها نوع من الجنون، فقفزت من مكانها وارتمت على وجهها وهي تئن وتزفر وتعض على نواجذها...

جن جنون لوران لكثرة ما صادفه من مقاومة كميل، فجعل يهزه بعنف، واستمر يضغط على عنقه بكل قواه، وما هي إلا فينة حتى تمكن من الفتى فرفعه في الهواء.. وشعر المسكين بالموت، فحاول التخلص من الذراعين المفتولين، ثم مال برأسه على عنق جلاده فغرس أسنانه في رقبته، فصرخ لوران صرخة ألم وغيظ ورمى صديقه بكل قوته، فتلقفه النهر بذراعين مفتوحتين وضمه إليه..

اضطرب ماء النهر وعلته الفقاقيع، وصاح كميل وغاص في اللجة الباردة، ثم طفا ثم غطس، وما لبث أن برز ثانية فتعلق بالقارب إلا أن لوران ضربه على أصابعه، فأرخى قبضته المنوجعة وغاب في طيات الماء، وظهرت شعرات من رأسه أخذت تعبث بها المياه، وما لبث النهر أن ابتلعه.

أخفى لوران جرحه العميق وراء ياقته، ودنا من تريز فرفعها بين ذراعيه وقفز بها من القارب وجعل، بعد أن قلبه رأسًا على عقب وأرسله إلى قاع النهر، يصرخ مستنجدًا مستغيثًا. وتناهى صوته إلى الصيادين الذين كانوا يتغنون وينشدون، فهرعوا إلى مصدره، وما هو إلا قليل حتى انتشلوا المرأة وحبيبها وحملوهما إلى اليابسة. بيد أن لوران كان يعول ويولول..

كان يصرخ صراخًا يفتت الأكباد.. كان يدعو بالويل والثبور وعظائم الأمور.. لقد فقد صديقه، فقد أعز صديق..

وتخلص من قبضات الرجال المشدوهين ورمى بنفسه في النهر، وأمضى فترة من الزمن يبحث دون جدوى عن كميل، على أنه رجع راجعًا وهو مطاطئ الرأس حسير النفس مكتئب الروح مستعبر العينين.. وجعل يندب صديقه ويرثيه، ويتفجع لما حاق به، حتى استحوذ الحزن على الحاضرين، فتوجعوا عليه ونسوا "كميل" الغريق.. وتصاعد صوته الحزين يردد بأسى ويأس:"أنا الملوم على ما جري، أنا المسؤول، ويلي، أنا المسؤول، لو منعته من الرقص والقفز.. لسلم وسلمنا، ولما انقلب القارب بنا..".

لقد استغاث ولكنه لم يطلب الحياة لذاته، بل طلبها لامرأته.. يا للوفاء.. ليرحمك الله أيها الخل...

وحدث ما يحدث عادة، فقد وافق ثلاثة أو أربعة صيادين على كلامه، فشهدوا بأنهم رأوا القارب ساعة اختل توازنه، كما زعموا أنهم رأوا لوران يسعى جاهدًا لإنقاذ الضحية.. واتجهوا عقب ذلك إلى المطعم، فتجمهر الناس حول الباب، وأخذوا يتحدثون عما جرى ويصفون الكارثة التي أودت بحياة شاب في غضارة الصبا، ويضفون البطولة الخارقة على لوران المخلص الوفي..

بيد أن تريز غائبة عن الصواب في أثناء ذلك، لا تعي ما يدور حولها، ولا تصغي لما يقال لها. فلما عادت على رشدها بعد حين، صحبها لوران إلى مخدع النوم الذي قدمه لها صاحب المطعم، ثم هرول نازلًا واستقل عربة وتوجه إلى باريس ليطلع أم كميل على الفاجعة..

أوهام الانتصار

استخف لوران الفرح للنجاح الذي أحرزه، ولانطلاء خدعته على الجميع. وهو منطو على نفسه في العربة التي حملته إلى باريس، وما كاد يصل إلى باريس حتى قصد لتوه منزل ميشو، وكانت الساعة تقارب التاسعة ليلًا.

وجد ضابط البوليس المتقاعد يتناول الطعام مع ابنه أوليفيي وزوجة ابنه سوزان، فانتحى بالشيخ جانبًا وأطلعه بصوت مهموس على المأساة المروعة، ثم عقب قائلًا: "وقد قصدتك فور وصولي لجهلي المطبق فيما يجدر بي أداؤه لهاتين المرأتين التاعستين، وأرجو أن تصحبني إلى الأم الثكلى..".

وأصابه الهلع الشديد ساعة رأى عيني أوليفيي تحدجانه من بعيد بنظرات الفاحص المتأمل. لقد أتى إلى هذين الرجلين بجرأة لا تعرف الخوف، ولكنه شعر وهو يتعرض لهذه النظرة النارية أنه ارتكب خطأ فاحشًا بلجوئه إلى رجلين ينتميان إلى قوى الأمن، ويتميزان عن سائر الرجال بقوة الملاحظة التي اكتسباها من طول المران.

أما الحقيقة التي لا مراء فيها، فهي أن أوليفيي، الذي سمع كلام لوران، لم يتمعن في وجهه عن قصد أو اشتباه، بل كانت نظرته نظرة رجل متألم صعقه خبر فاجع.. أما ميشو فقد تأوه متوجعا وقال: "يا إلهي.. ما

أصعب العيش.. ما أصعب المهمة.. يا للمسكينة.. يا لأمه المسكينة.. وماذا نقول لها؟ وكيف يتاح لنا تعزيتها؟ لقد أصبحت بمجيئك إلينا، وسنذهب معك..".

وضع الرجل قبعته على رأسه ونزل مع لوران وابنه وزوجة ابنه، فلما وصلوا إلى جسر "بونت نوفو" استمهل ميشو لوران قائلًا: :لا تصحبنا إلى الداخل، بل انتظر ريثما نعد المرأة لتقبل الخبر القاصم". فتنفس القاتل الصعداء، وسر لهذا الإجراء. ودخل الآخرون، وشرع ميشو يتكلم، وكان حذرًا حريصًا، إلا أن الأم المهيضة أدركت سريعًا أن حدثًا جسيمًا قد ألم بابنها، ففر لونها وألحت على ميشو وهي تشرق بدمعها وتكاد تتهافت من الرعب، وأن ينبئها بالخبر اليقين. وانصاع الرجل لإرادتها وأطلعها على الفاجعة..

ولوت المسكينة، وذرفت الدمع السخين، وكان حزنها مريرًا يلين الجماد... كان أشد من الحزن، بل كان مأساة أصبح الحزن إزاءها ملهاة..

مزق صراخها الفضاء، ودوى نحيبها فأعول المساء.. وصاحت من كبد محرور، فتضورت النجوم ألمًا في كبد السماء.. وبكت ما شاء لها البكاء، وكان بكاؤها هولًا وفناء..كان بكاؤها زوال ضياء وحلول ظلماء..كان بكاؤها أروع وأبشع من البكاء،– كانت أم– والأم متى فدحت بابنها أضحت من كثرة الشجن بلهاء وأي بلهاء..

جمد أوليفيي وأبوه في مكانيهما، وأقبلت سوزان على الثاكلة تواسيها وتعزيها، وتسكب معها أحر الدموع.. ولكن أية تعزية هي تلك التي ترفع عن قلبها غمها ؟ أي سلوان هو الذي يخفف عن روحها الضنى والقنوط.. رأت الأم الملهوفة ابنها يصارع الموج.. رأته في الأوان نفسه طفلًا يلح عليه المرض.. ثم رأت نفسها تكافح وتدافع المرض، وتقف في وجه الموت وتنتصر عليه.. وتنتصر.. وتنتصر.. مثنى وثلاث ورباع، إلا أن الموت انتصر عليها في نهاية المطاف فسلبها وحيدها.. أملها.. مناها..نور حياتها.. سلبها الدنيا والآخرة.... وأحست بشيء يستقر ثقيلًا كبيرًا في حلقها، ويكاد يخنق نفسها، فتمنت لو قضت نحبها الآن.. الآن.. حتى تلحق بحبيبها.. وانسحب ميشو وابنه، وذهبا مع لوران إلى سان أوين، فوجدوا تريز في الفراش تتقلى على نار الحمى، كما أخبرهم صاحب المطعم. أما الحقيقة فهي أن تريز، وقد عادت إلى نفسها، ضاقت ذرعًا بخوفها، ولكي لا يفتضح أمرها تظاهرت بالإعياء، ثم تهالكت وتمارضت، ولاذت بالصمت وأغمضت عينيها، وأبت أن ترى أحدًا من الناس.

ولكنها كانت طيلة ذلك ترى "كميل" ولوران وهما ملتحمان في معركة الموت.. ترى "كميل يطفو وجهه الشاحب ثم تغيبه المياه.. وكانت هذه المشاهد سببًا آخر في انفعالها وارتفاع حرارتها.

وحاول ميشو مرارًا أن يكلمها، ولكنها كانت تحول رأسها على الناحية الأخرى وتنخرط في البكاء.. فلم يجد الرجل مندوحة من

مغادرتها، فهبط مع ابنه ولوران إلى المطعم حيث اجتمعوا مع ضابط الأمن الذي كان في أثناء ذلك يستجوب الشهود.. واستمعوا إلى ما كان يقال، وأنصتوا إلى الصيادين الذين زعموا أنهم شاهدوا ما وقع للضحية، وكيف حاول صديقه لوران إنقاذه فأشرف هو الآخر على الغرق.

وأجمعت الصحف في اليوم التالي على بطولة الصديق وأريحيته.. اكتظت صفحاتها الأولى بوصف الحادث الأليم، مشيدة بمناقب لوران الشهم، الذي بذل جهد الجبابرة لإنقاذ صديقه من مخالب الموت..

أفرخ روع لوران ساعة أعلن تقرير الحكومة الرسمي، وخيل إليه أن حياة جديدة دبت في جسده.. فمنذ اللحظة الأولى التي غرس فيها الضحية أسنانه في عنقه، كان يتراءى له أنه ميت– ميت في نفسه وحسه– وكانت غريزة حب البقاء تحفزه إلى المقاومة، وتنطق لسانه بالكلام...

أما الآن، وقد لاحت له تباشير النجاة من العقاب والظفر بالمنى وبالحياة، فإن دماءه عادت تجري في عروقه، فاستمر يمثل دور الصديق المفجوع الملتاع لمصيبة صديقه، وعلق يفكر بتريز ويتخيلها نائمة في الفراش بجانبه.

قال لميشو وهو يتكلف الشجى: "ليس في وسعنا أيها الصديق أن ندع هذه المسكينة وشأنها، وهي مصابة بأفدح مصيبة.. ليس في مقدرونا أن نتركها دون ناصر أو معين، فقد يصيبها مكروه، وقد تطغى عليها

آلامها النفسية فتفضي بها إلى الجنون، بل إلى الموت.. ولا حل لنا إن شئنا مساعدتها، من حملها على باريس..".

وما أتم تخليطه حتى هرول صاعدًا إليها، فرجا منها بصوت مشرب عطفًا ومحبة أن تتمالك قواها.. فلما سمعت صوته ارتعش جسدها المحموم، وحملقت إليه مشدوهة مذهولة، ثم استوت جالسة في الفراش، وجعلت تلتفت إلى اليمين وإلى الشمال، كأنها مخبولة أصابتها لوثة..

ورضخت أخيرًا له، فارتدت ملابسها ومشطت شعرها، ثم استقلت العربة. وجلس لوران أمامها، وأمسك بيدها وجعل يضغط عليها.. وشعر بهذه اليد الناعمة ترتجف في يده، إلا أنها لم تحاول سحبها من قبضته، بل أجابته على ضغطته بضغطة مماثلة، فاندلعت النيران في اليدين،، وخيل للاثنين أن دماءهما اختلطت وامتزجت، وأنها لن تلبث أن تتمخض عن حياة وأمل وسعادة..

إلا أنهما في الظلام الدامس شعرا بقبضتهما الموحدة تثقل وتثقل وتضغط على رأس كميل، فلا يتيسر له رفع هذا الرأس من الماء ووصلت العربة أخيرًا، فنزل ميشو وابنه أوليفيي، ومال لوران على خليلته وهمس في أذنها: "تشجعي يا تريز.. فأمامنا طريق طويل، ينبغي عبوره بصبر وجلد وقوة..".

فأجابته بصوت مثل صوته: "لبيك يا حبيب الروح، وثق بي، فأنا

كالطود، وقلبي قوي، وحبي صخرة تتحطم عليها الأعاصير.."

وهبطت من العربة مستعينة بيد أوليفيي، ثم أسرعت إلى مخدعها فاحتجبت فيه..

ومضى لوران في سبيله، مشى في الطريق الموحش الخالي من المارة، وكان الليل قد انتصف، والنسيم يهب من الغرب عليلًا منعشًا. ولم يسمع القاتل سوى وقع خطاه على الأرض الحصباء، وكان للصوت وصداه تأثير رهيب في قلبه.

لقد قتل أخيرًا، قتل "كميل"، وانتهى الأمر، وسيحيا الآن في سلام ريثما يحين الوقت الذي يرتبط فيه بتريز إلى الأبد.. كانت فكرة اقتراف جريمة القتل تسبب له في الماضي ضيقًا وذعرًا، كانت نفسه تثور وتتمرد كلما فكر في القتل، أما الآن، وقد قتل، فإنه شعر كأن عبئًا ثقيلًا ارتفع عن عاتقه، فتنفس بيسر وسهولة، وأيقن أنه شفي من آلام التردد والخوف...

وولج غرفته، وما هي إلا دقائق حتى كان يغط في نومه.. غلا أن قلبه كان يجب وجيبًا شديدًا، وعضلاته تنتفض بين الحين والحين انتفاضة غير معهودة لديه.. لقد تغير فيه شيء، وانتابه شعور غامض لا يعرف كنهه.. كان القدر يتمخض. كان الغيب يوشك أن يتضح. وكانت ارتعاشة وجهه، وخفقة قلبه، واختلاجة أهدابه، وهو مستغرق في النوم، أبلغ دليل على ميلاد عهد جديد.. لقد بقي، ولا يدري بما هو غائب. لقد ودت نفسه البقاء خوفًا من الردى.لقد سل سيفه على صديقه وعمي

عن السيف الذي تسله المنايا على البشر .

استيقظ لوران في الصباح في أحسن حال، كأن النسيم الهباب قد أسكن نفسه وملأ روحه التي كانت تعاني الضنك، رجاء واستبشارًا. وغاب عن باله الحادث الرهيب، ولكن الجرح المؤلم الذي أحدثته أسنان كميل في رقبته كان يذكره به بين الحين والحين.. كانت هذه بمثابة قطعة من الحديد ملتهبة تحرق جلده. كان يشعر كأن عشرات من الإبر تمزق جلده ببطء وإصرار واستمرار..

نظر في المرآة، ولوى رأسه حتى استطاع أن يرى الجرح الأحمر، وبقع الدم التي سالت على كتفه، فغسل الجرح بماء ساخن، وطمأن نفسه بأنه لا يلبث أن يندمل بعد بضعة أيام. ثم ارتدى ملابسه وذهب إلى مكتبه، وهناك سرد المأساة بصوت خافت بدا للجميع كأنه لحن حزين يرثي به صديقًا راحلًا... وكان زملاؤه قد قرأوا تفاصيل الحادث في صحف الصباح، فتمثل لهم لوران بطلًا من الأبطال، فاحترموه وبجلوه وقدروه "حق" قدره..

غير أنه رغم اطمئنانه إلى زوال الخطر، فإنه لم يفتأ يضطرب كلما فكر بالجثة المختفية... فكميل في الحقيقة لا يزال مجهول المصير، وما دامت جثته راقدة في قاع النهر، ودوام هذه الحال يعرقل المساعي، ويهدم ما بناه هو وتريز من قصور الآمال.

بحث المسؤولون عبثًا عن الجثة، فغطس عدد من الغاطسين في كل بقعة تكثر صخورها.. ولكن دون جدوى.. لقد اختفى كميل، ولعله

تلاشى بقدرة قادر. ودأب لوران على الذهاب إلى معرض الجثث المجهولة علة يعثر على الجثة المختفية.ومضت الأيام، وكاد يضيق ذرعًا بهذا الانتظار الطويل، وكاد اليأس يداخل قلبه من العثور على الغريق.

وحدث في يوم من الأيام أن رأى جثة رجل شوهتها المياه تشويهًا فظيعًا.. وبينما هو يحملق مشدوهًا إلى هذا الفناء المروع، إذ بالرأس ينشق قليلًا، وبالأنف يتسطح وينبسط، وبالشفتين تنفرجان عن أسنان منضودة بيضاء كالثلج.. وضحك الرأس الغريق، وضحك لوران ولكن ضحكته كانت أشبه بالعويل.. وطال الأمد وتلاشت الراحة، وحل مكانها الهم والكمد. ولهفت نفس لوران: أين الجثة؟ ومع ذلك فكلما خيل إليه أنه وجدها سرت في نفسه قشعريرة خوف وفزع باردة، واعتاد هذه الزيارة اليومية إلى المعرض الرهيب، وارتاحت نفسه كلما رأى فيه جثث نساء عاريات الصدور باديات النهود.. وانتشت روحه كلما وقع طرفه على الدماء المتخثرة على هذه الصدور الساكنة سكون الأبدية..

رأى مرة جثة امرأة في العشرين من عمرها، وكانت أعضاؤها منسجمة قوية سليمة، وتراءى له أنها تكاد أن تنهض من رقدتها، فالجسم البض الجميل لم يعتريه البلى، والطراوة المتجلية في تقاطيعه لم يقلل منها ما حاق بها، وكانت الشفتان مفترتين عن ابتسامه خفيفة لطيفة، والنهدان الصلبان قائمين مستويين، كأنهما يتحديان الموت.. ولولا ذلك الخط الداكن الرفيع الذي أحاط بعنقها، لحسبها المرء فتاة تعرض مفاتنها على حبيب قلبها، ونقل لوران طرفه في أعضاء هذا الجسد، فشعر

بنوع عجيب من الرغبة الخائفة..

وجاء أخيرًا ذلك اليوم الذي وجد فيه ضالته في المعرض، فسمر في مكانه، وجعل ينظر إلى العينين المغمضتين نصف إغماضة، وإلى الشفتين الزرقاوين المتقلص ما حولهما بهلع قاتل. ومرت عليه الدقائق وهو جامد ساكن، يفكر ولا يفكر، يرى ولا يبصر، ويقارن بين كميل وهو حي وكميل وهو جثة هامدة.

وكان المنظر كريهًا لم ير لوران أبشع منه، كان منظرًا تتقزز منه النفس، كان كميل بوجهه الناحل، وصدره الناتئ العظام، وساقيه الهزيلتين، يبدو كرجل قضى فترة من الزمن دون أن يطعم طعامًا أو يشرب شرابًا .

وعندما استطاع لوران أن ينتزع نفسه انتزاعًا من معرض الجثث، ذهب إلى ميشو فجاء به، وقام الاثنان بالإجراءات اللازمة من استصدار شهادة الوفاة وتصريح الدفن.. ولما تمت المعاملات القانونية الضرورية، دفنت جثة كميل، وخيل إلى لوران أن همومه دفنت مع كميل، وأن سحابة كثيفة جلت من أفقه، وأنه حان الوقت الذي ينسى فيه جريمته، وما أعقبها من حوادث، وما لابسها من إبهام... خيل للقاتل أنه نسي الجريمة، فهل نسيها حقًا؟

خيل للقاتل أنه أفلت من العقاب، فهل أفلت حقًا؟ خيل للقاتل أنه ظفر بأمنيته، فهل ظفر بها حقًا؟ خيل للقاتل أن العقبة الضخمة قد أزيلت من طريقه. فهل زالت حقًا تلك العقبة الكأداء بزوال كميل، وهل استخلص تريز لنفسه؟ وهل مات كميل؟

لوعة الفقد

خيم السكون.. سكون القبور على الدكان الصغير.. وأرخت المصيبة عليه ظلالها الرهيبة، فناح الدكان، وناحت السلع، واتشح جسر "بونت نوفو" بالسواد، ارتجت أبواب الدكان الصغير الساكن سكون القبر، وعندما فتحت ثانية، بدت السلع، المعروضة في واجهته، كأنها هي الأخرى تتشح بغلالة من السواد، فقد علاها الغبار وانتشر حولها التراب، وشاب وجه تريز اكفهرار وأي اكفهرار..

قضت مدام راكان والزوجة الأرمل أيامًا ثلاثة في حزن كثيف، مرير أحلك من الليل البهيم.. لاذت كل من المرأتين بحجرتها ولزمت سريرها، وفكرت كل واحدة بمصيبتها تفكيرًا يختلف عن تفكير الأخرى.

ولم تر كل من المرأتين وجه الأخرى في هذه الأيام الثلاثة. وكان موت الفتى بمثابة الضربة القاصمة تنزل بعنف على الرأس فتشدخه.. وهكذا ألم بالعجوز المسكينة شداه أذهلها عما يحيط بها، فوقعت في بحران من المرض– مرض اليأس الذي عصر كبدها ونهش فؤادها وأسلمت إلى الجنون..

وظلت هذه الثاكل ساعات وساعات وهي صامتة ساكتة مطبقة الفم، تحدق بعينيها، فلا ترى، وكأنها تتيه في جحيم من اليأس والقنوط.. وتلا ذلك توتر شديد في أعصابها، فطفقت تنتحب، وطفقت تنوح،حتى اهتز البيت ألمًا، ومادت الأرض لوعة وحسرة.. أما تريز فقد أوصدت عليها هي الأخرى باب مخدعها، ولاذت بالفراش، فاضطجعت عليه، فلم تتحرك من مكانها أو تذرف دمعة سخينة على قرينها.. وكانت سوزان في أثناء ذلك تخدم المرأتين، ولكنها أخفقت في حمل تريز على تبادل الحديث معها، كما أنها فشلت فشلًا ذريعًا في التخفيف عن آلام الوالهة.

في اليوم الثالث عزمت تريز على شيء، فغادرت الفراش وارتدت ملابسها، ثم ذهبت إلى غرفة مدام راكان، وكانت المرأة العجوز في تلك الأثناء شاردة اللب موزعة البال، فلما دخلت تريز بادلتها النظرات، ثم فتحت ذراعيها وضمت إليها زوجة ابنها، وصرخت صوتًا من الأعماق، ردده الفضاء، وكأنه صوت الفناء.. قالت: "ابناه.. المسكين.. أواه يا كميل".

وبكت، ذرفت الدمع الهتون، وسكبت مدامعها المحرقة على وجه الأرملة الشابة. ألحت عليها في النزول إلى الدكان. وكانت المرأة قد انكمشت وتقلصت بهيئتها وعاطفتها، حتى أضحت أشبه بطفل.. وكان ظهور كنتها الفجائي بمثابة عودة الذاكرة إليها، فأقبلت عليها تبثها أحزانها وتفضي إليها بآلامها، وتشكرها على رأفتها وحنانها..ثم دعتها

إليها ثانية وهي لا تزال تنشج وتنتحب، وعادت المياه إلى مجاريها، وأكلت العجوز طعامها بعد صوم طويل، وفتحت أبواب الدكان على مصاريعها ثانية.

استأنف لوران ما قطعه من زيارة الدكان، فطفق يقضي مع المرأتين المفجوعتين زهاء نصف ساعة في كل يوم، ثم يفارقهما دون أن يلتفت إلى تريز، وكانت مدام راكان تنظر إليه نظرها إلى منقذ ابنة أخيها، وكانت تثق بأنه ذلك الرجل الكبير القلب الذي بذل وسعه لدرء الخطر عن ابنها، لهذا جعلت تستقبله بمزيد من اللطف والبشاشة والترحاب.

واجتمع الأصدقاء في يوم خميس في الدكان، وكأنهم كانوا على ميعاد، وما إن جاءت الساعة السابعة حتى صعدوا إلى المنزل، وجعلوا يزاولون عادتهم القديمة، فيلعبون ويحتسون أكواب الشاي ويتسامرون.. وتذكرت المرأة ابنها الراحل، فذاب قلبها حسرة وأجهشت بالبكاء، ثم أومأت بيدها المرتجفة إلى المقعد الخالي.. فذعر الجميع وخفقت قلوبهم، وشعروا بالحسرة على أيام هنيئة ولت، ولم يشعروا بشيء من الحسرة على الكارثة التي حلت بكميل.

أما لوران فقد اغتبط لاستئناف سهرات الخميس، فهي كفيلة بتحقيق رغبته وتحقيق غايته، وكان رداء تريز الأسود يزيدها جمالًا في عينيه، وكان قلبه يخفق طربًا كلما بعينيها تنحطان عليه بشجاعة وقوة، إنها له جسدًا وقلبًا..

على أن هذه السعادة لم تدم إلا ريثما أعقبها تعس وشقاء، ذلك أنها كانت سعادة كالرعد والبرق اللذين لا يحدثان مطرًا. فقد مضت سنة وثلاثة شهور، فتلاشى الحزن من قلب الأم، أو كاد، أو خيل للأقربين أنه خف.

ورجع لوران إلى عادته القديمة، وأخذ يلم بالدكان في مساء كل يوم، فيسأل المرأتين عن حاجاتهما، وينتحل الأعذار إن تخلف عن المجيء، كما ينتحلها خادم مخلص أمين. وكان في ليالي الخميس يعين مدام راكان في الاستعداد لاستقبال الضيوف.. ولكنه لم يحاول الانفراد بتريز، وإن كان يختلس من فمها قبلة يستعيد منها الاثنان ذكريات الماضي السعيد. ويبدو أن الجريمة أخمدت نار شهوتهما، أو ذرت الرماد فوق هذه النار المشبوبة.. فبإقدامهما على قتل كميل تمكنا من إشباع رغائبهما الوحشية، ولكن هذه الجريمة الكبرى ملأت قلبيهما اشمئزازًا من القبل والتقبيل.

والعجب العجيب أن الكثير من الفرص سنحت لهما لإشباع غريزتهما، وتحقيق جانب من حلمهما الذي دفعهما إلى القتل.. فمدام راكان المشدوهة الشاردة اللب لم تكن تمثل بشخصها وكيانها عقبة تحول دون بغيتهما التي اقترفا في سبيلها أبشع جريمة، إلا أن الحب لم يعد يحثهما على محاولة ما قطعاه، وقابليتهما التي طالما ارتكبا الشطط وركبا متن الخطر من أجلها لم يبق لها من وجود، فجعلا يمضيان وقتيهما في تبادل النظرات والكلمات، وطفقا ينظران الواحد إلى الآخر من غير

أن تصطبغ وجناتهما بذلك اللون القرمزي الذي يعقب الانفعال.. كما أنهما نسيا تلك القبل الوحشية المتلظية التي كانت تتخدش من عنفها شفاههما.. ووصل بهما الأمر أخيرًا إلى التهرب من كل خلوة تسنح اتفاقًا، فهما كلما ألفيا أنفسهما في خلوة لا ثالث معهما، استولت عليهما الحيرة، ولم يعرفا ماذا يقولان وماذا يصنعان..وأخشى ما خشياه الظهور بمظهر البرود والجمود، على أن الاثنين كانا يخدعان أنفسهما، ويعتقدان أنهما فهما السبب الذي يجعلهما يظهران بهذا المظهر كلما اجتمعا.. فقد نسيا اضطرابهما وأصرا فيما بينهما وبين أنفسهما على أن همود حواسهما وهجوع قلبيهما ما هو إلا من قبيل الركون إلى ما يحمله المستقبل القريب من استتباب واستقرار حياتي بيتي.. تشبثا بفكرة الزواج، ونسبا إليها هذا الخمود الوقتي في العاطفة، وأيقنا أن القلبين لن تلبث نار الحب أن تدفئ جنباتهما، فيسترجعا عواطفهما ولذتهما ونشوتهما، وينعما بحياة كلها رغد وحب.. وهذا الأمل، فيما يتشوفان إليه، درأ عنهما خطر السقوط في هوة اليأس السحيقة التي فغرت فاها في أعماق كل منهما..

في جنح الليل... في بهيم الليل الذي كان الكرى يجفو إبانه عيني تريز، كانت تستوي جالسة في سريرها، وتستغرق في لجة من الفكر... ويفضي بها الفكر أخيرًا إلى اعتبار لوران كلبًا أمينًا يحرسها ويدفع عنها الأخطار.. فأضلاعها الباردة لم تعد تضرم نارها جذوة الرغبة، تلك التي كانت تلهبها وتشعلها قبل مصرع كميل..

وانكبت على المطالعة، فقرأت قصص الأبطال.. فأثرت فيها الكتب، فجعلت تبكي بلا سبب، وتضحك لأدنى سبب.

وهكذا رجعت إلى سابق عهدها من الاضطراب والقلق، وكانت الأقاصيص، التي تخوض مضمار الاستقامة والشرف، تضع العقبات والفواصل بين غرائزها وإرادتها. وبقيت كما خلقت، تلك الفتاة المتوحشة التي تحدث السنين، وقذفت نفسها في مستنقع الفاحشة الآسن...

إنها لكثرة ما قرأته من كتب غدت قادرة على التمييز بين النبل وضده، والرقة ونقيضها.. ولكنها عجزت عن سبر غور نفسها. واستمرت تعيش في معترك من البلبلة وعدم الاستقرار.. أما لوران، فقد خبر في البدء شعورًا بالراحة والاطمئنان، وكأنه تخلص من عبء ثقيل.. وكان يتساءل في دهشة واستغراب، ويتراءى له أنه في أضغاث، وأن ما حصل فعلًا هو رؤية مزعجة لن يلبث تأثيرها أن يتلاشى بعد اليقظة التي تعقب الغفلة، فهو لا يكاد يصدق أنه قادر على اقتراف جريمة القتل، منذ مقتل كميل استمر يمثل دوره بطريقة لا شعورية تمليها الغريزة.. وكان كالحيوان المكفوف الذي يعرف واجباته ويؤديها بضبط وإتقان... أما الآن فقد أخذ يتلفت حتى وقع طرفه على الهوة التي مر فوقها، فخارت عزيمته وخثرت نفسه..

وكثيرا ماحدث نفسه: "لا جرم أني كنت مخمورًا لقد اختبلتني هذا المرأة بغنجها ودلالها.. يا إلهي كم كنت مجنونًا ساعة جازفت بحياتي ومستقبلي".

وزاده الفكر جبنًا.. وزاده الخوف حرصًا.. وزاده التكاسل والإقبال على الطعام وزنًا..وزاده شرود الذهن إهمالًا لهندامه وأناقته ونظافته، ولكنه أصبح مواظبًا على عمله، وجعل يأكل في المطعم الحقير الذي كان يقصده قبل التقائه "كميل"، فيقضي فيه ساعة الظهيرة وهو يمضغ ببطء ويلوك بتمهل، كأنه يتعمد إطالة الوقت..

لم يفكر في شيء في أثناء النهار، أما في الليل فكان يستغرق في نوم ثقيل... وهجعت رغباته، وأصبحت تريز لا تخطر له على بال.. وإن تمثلت له في بعض الأحيان، فهو يراها زوجة شرعية له، ويرى نفسه رجلًا متقاعدًا يعيش في بحبوحة من ريع الثروة التي تملكها زوجه.

كانت هذه الأحلام تسدد خطاه إلى الممر في مساء كل يوم، بالرغم من شعور القلق الذي كان يداخله كلما ظللت رأسه قباب الدهليز، ووطئت قدمه عتبة الدكان.

وانتهت مدة الحداد، واستبدلت تريز الملابس السوداء بملابس زاهية، فاكتشف لوران فجأة أنها تبدو صغيرة مغرية، ولكن الاضطراب ما برح يختلجه، فهي تضحك وتبكي بلا سبب، وهي كما لاح له حيرى لا تعلم لها هدفًا، ولا لتفكيرها غاية، ولا لشعورها مستقرًا.

وخاف مما هو آت.. ولكن، لا بد مما ليس منه بد.. يجب أن يرتبط بتريز، فقد انقضى على موت كميل سنة وثلاثة أشهر... وهو لم يقتل إنسانًا خلقه الله إلا ليظفر بزوجته.. فكيف يستطيع أن يهجرها؟

كيف يسوغ خيانته المروعة إن هجرها، إن رباطًا من الدم والروع يشده بتريز.. وإن تريز إن نأى عنها قد تسول لها نفسها الانتقام منه، فتشي به، وتقول: "علي وعلى أعدائي يا رب".

واغتنم ذات ليلة دقيقة غفلت فيها مدام راكان عنهما، فقال بصوت مهموس: "ما أتوق إلا إلى المبيت معك الليلة، فهل أطرق بابك؟ هل آتي إليك بعد لجوء عمتك إلى مخدعها؟".

فجحظت عيناها، وأجابت وهي ترعد: "كلا.. لا تفعل.. علينا أن ننتظر، ففي التأني السلامة".

غادر لوران الدهليز وهو متوتر الأعصاب مكدود الجسم.. فأنفاس تريز الحارة أيقظت شوقه وألهبت رغبته. فطفق يمشي قدمًا إلى الميناء وهو ممسك قبعته بيده، حتى يبرد الهواء نار جبهته المتأججة.. ثم عرج على غرفته، فدهمه الفزع، وخيل إليه أنه سيلقى رجلًا مختبئًا في هذه الغرفة الأقرب إلى الكهف..

لم يكن قد أحس من قبل بهذا الخذلان، فما رأى نفسه إلا وهو ينكص على عقبيه، ويدلف إلى حانة قريبة فيشرب الخمر ويكثر من شربها.وفكر بتريز وهو يجرع خمره، فأحن عليها، لأنها لو رضيت به رفيقًا في غرفتها لما كبد ما كبده.

ولم يجد مناصًا في نهاية الأمر من الذهاب إلى حجرته، فما كاد

يدخل الباب الخارجي حتى انقبض صدره، وأطبق عليه خوف قاتل.. وخيل إليه أنه لن يلبث إلا أن يرى القتلة منبثين في كل زاوية أو ركن، بل أيقن أنهم لكثرتهم أشبه بحقل مزروع..

وأصابه اللهاث، وكأنه يقاسي شدة الموت، ولم يجسر على التقدم بخطاه أو التأخر إلى ورائه، وما أبطأ بعد أن استجمع قواه أن أغار على باب غرفته، ففتحه بيد مرتجفة، ودخل بسرعة وهو لا يكاد يصدق أنه نجا من ذلك الهول، ومن هذه الأشباح، وطفق يبحث، فلما اطمأن على خلو الغرفة من الأشباح، تنفس الصعداء، وتهالك على فراشه وهو يبتسم في شداه وتعجب.. وتحولت دفة أفكاره إلى كميل، فلم يجرؤ على فتح عينيه خوفًا من أن يبصر ضحيته في ركن الغرفة.. وشعر فجأة بالسرير يهتز، فظن أن "كميل" مختبئ تحته، وأنه يهزه هزًا عنيفًا، حتى يقع قاتله إلى الأرض، فينقض عليه وينشب أظفاره وأسنانه في مخنقه... وخثرت نفسه، ولهف قلبه، وتولاه اللغوب.. ثم أدرك، بعد هلع، أن السرير لا يتحرك/ فأفرخ ما شبث بقلبه من روع، وأطفأ الشمعة وحاول أن ينام.

وبينما هو يفقد شيئًا فشيئًا حواسه، وتنطلق إرادته من زمامه، طفقت أفكاره ترجع إليه وتنثال عليه.. وبدأت الرؤى تطوف به من جديد. فرأى تريز كما خلقها ربها، رآها مضطجعة على الأريكة في شكل جذاب يستثير المشاعر.. ثم رأى "كميل" حيًا يرزق، ورآه في معرض الجثث، جثة... ثم أحس بالباب ينشق ويظهر من ورائه كميل الميت– كميل المنتفخ الجثة– كميل ذو اللون المحتقن.. ومدت الجثة يدها للوران

بضحكة بشعة مشبعة حقدًا وضغنًا، حتى بدت نواجذها، وكانت سوداء فاحمة.. وحتى بان لسانها وكان داكنًا مريعًا..

صرخ لوران وقد اقشعر بدنه وتندى جبينه بالعرق.. ثم سحب الغطاء فوق رأسه وحاول أن ينام... وأصابه استرخاء، تبعه فترات صحو.

أخيرًا تبلج الفجر، فتحاملالمضني على نفسه، وارتدى ملابسه وهو يشعر بالتعب .. وكان إبان ذلك يغمغم: :لو وافقت تريز على طلبي، لو قبلت بي الليلة في مخدعها، لما جرى ما جرى..".

ومادت الأرض تحت قدميه، وسمر إليها بقيد من هلع ساعة أنبأه حسه بأن النهار سيعقبه ليل.. وسمع صوتًا بعيد الغور يقول.. سمع صوتًا من الأعماق يهتف.. سمع صوته المتحشرج يردد: "لا حل لي إلا الزواج.. فمتى ضمني مع تريز فراش واحد لا أفكر بكميل.. ومتى قبلتني تريز في عنقي فارقتني وجعي، وزايلني ألمي.. ويحه.. لقد عضني..".

في تلك الليلة تسلل إلى الدهليز ودخل الدكان، فما كادت مدام راكان تراه حتى هرولت إليه تقول: "لكم قاست تريز من تباريح الذكرى في الليل.. لكم سمعتها تصرخ وتهذي.. وهي تشعر الآن بوعكة ألم..".

وكانت عينا تريز إبان ذلك تتطلعان إلى وجهه بنظرة غريبة جاحظة... ولا جرم أن الاثنين حدسا ما حدث لهما في الليل.

ولبثا في مكانيهما حتى العاشرة.. وران عليهما صمت، وأي

صمت... وكانت عيونهما تتكلم، وكانت التيارات المختلفة يتجاذبها القلبان الوجفان المرتجفان في جنون.. بل في جنون أشد من الجنون....

ألم بتريز أيضًا طيف زوجها القتيل في تلك الليلة، فأخذ جلدها يقشعر، وطفقت تفكر بكميل راقدًا في جوارها. وكما جرى للوران جرى لها هي، وكما صرخ صرخته المدوية، صرخت هي، وكما تراءى له أن زواجه كفيل بإعادة الأمور إلى نصابها، تراءى لها.. وتوترت أعصاب القاتل وشريكته، بل تحطمت هذه الأعصاب، وكان من جراء انهيارها أن تقارب القلبان، أو بالأحرى، كان هذا الانهيار حافزًا لهما على إحياء حبهما، فرابطة الدم– الدم المهراق– والشهوة الحمراء الرعناء، قد جمعتهما معًا، وقررت مصيرهما. الذي كان حيل هدوءه قلقًا، كان يحيل هدوءها قلقًا.. والذي كان يحز في قلبه، كان يحز في قلبها.. وعلى ذلك أضحى قلباهما قلبًا واحدًا، وجسداهما جسدًا واحدًا، وروحاهما روحًا واحدة.

وهذه المقاسمة– مقاسمة النزع والعواطف والأهواء، هذا التغلغل الجماعي في مقومات حياتيهما هو ظاهرة نفسانية تصيب أناسًا تجمع بينهما أعصاب حطمها الدهر.. حاولا أن يجفوا، أن يبتعدا... حاولا أن يحب الواحد منهما شخصًا آخر، بيد أنه في ذلك اليوم الذي أظهرت لهما الحقائق أن لا غنى للواحد منهما عن الآخر، في ذلك اليوم، ضاقت حلقات السلسة، فأيقنا أنهما مرتبطان برباط لا انفصام له..

ومع أنهما كانا يتشوفان إلى الزواج، إلا أن الأخطار كانت تبرز لهما

من الفكرة، فيرتعدان فرقًا... فالزواج ولا جرم سيثير الشكوك والريب. وأخيرًا اتفقا أن يحثا مدام راكان نفسها وضيوف ليلة الخميس على مطالبتها بالزواج.. فهما إن أوحيا إليهم بأن هذا واجب تجاه الراحل، لن يترددوا في أن يطالبوا ملحين بتحقيقه..

ولم ينفك في أثناء ذلك شبح القتيل يظهر لهما في الليل، فكان الأرق يحيل فراشيهما إلى وقود، وكانت ألسنة النيران تندلع على الدوام من هذين الفراشين. وما كان أثقل تلك الليالي على قلبيهما، وما كان أشق تلك الليالي على مشاعرهما... وكان لوران يقضي هذه الليالي هائمًا على وجهه، خائفًا من غرفته، فزعًا من الشبح المريع الذي أمسى شريكًا له في مرقده..

وهكذا أصبحت حياتهما كفاحًا مريرًا بين الحياة والموت، صراعًا ناشبًا بين العقل والخيال، وقتالًا مستمرًا بين القاتل والقتيل، لا تخمد ناره ولا يفتر أواره..

وتضاعف وجلهما مع مرور الأيام، حتى أصبحا مع الجنون على ميعاد... ولم يبق لهما سوى القبلات يختلسانها اختلاسا لتسري عنهما قليلا، ولتشعرهما بأنهما ما برحا يعيشان ويحسان ويحبان.. وهكذا تضاعف وجدهما، وتضاعفت رغبتهما في الزواج، واشتعلت نيران الرغبة في صدريهما، فخيل إليهما أنهما كانا على حق عندما أخمدا أنفاس كميل.

أخذت جهود الحبيبين القاتلين تثمر شيئًا فشيئًا.. فتجهم وجه

تريز، وحزنها ويأسها، كل هذا أقلق بال مدام راكان، فأصرت على معرفة أسباب الانهيار في الشعور والصحة.. وأخذت تريز تلعب دور الأرملة الحزينة، وطفقت تصف مللها وآلامها دون أن تدخل في التفاصيل. وعندما ضيقت عمتها عليها الخناق، أجابتها بأنها في أحسن حال من الصحة، ولكنها لا تعلم سبب ضجرها وضيق صدرها، وتعقب على ذلك بالبكاء، ثم تتأوه وتزفر، ولا تلبث أن تبتسم ابتسامة مفعمة بالأسى..

أطبق الخوف على قلب العجوز، وخيل إليها أن تريز تذبل رويدًا رويدًا، وأن حياتها أصبحت مهددة بالزوال، ولهذا جعلت تبتهل إلى الله كل ليلة كي يجنبها السوء، ويحفظها لها. ولم تجد مندوحة عن طلب المشورة من صديقها القديم ميشو، فخلت به ذات ليلة وأفضت إليه بمكنون صدرها.

وأجابها وهو يهز رأسه: "أجل يا عزيزتي، فتريز تتردى في هوة عميقة من اليأس، وإني عليم بما يشقيها ويسلب عافيتها، فهي ضجرة من الحياة، ولا ينقذها من مللها ويأسها إلا الزواج".

كانت صراحة الرجل طعنة اخترقت سويداءها، فقد خيل إليها أن الجرح الذي نزف في قلبها تضاعف نزفه.

وذرفت العجوز دموع الحزن، فقد تراءى لها أن "كميل" مات مرة أخرى... ولكنها جعلت الصبر والأناة تروض نفسها على تقبل الفكرة، وفي الوقت نفسه تبحث عن القرين الكفؤ.

ولا مرية أن المرأة المسكينة كانت تفكر بنفسها أكثر من تفكيرها بابنة أخيها، فهي رغبت في تحقيق الزواج كي تضمن لنفسا السعادة، غير أنها كانت تخشى أن يعمل الزوج الموعود على إفساد أيامها الأخيرة، فمجرد تفكيرها بجلب رجل غريب إلى بيتها، كان يملأ قلبها رعبًا.. وهذا ما جعلها تحجم عن مكاشفة تريز بما وطدت عليه العزم..

اختلف دور لوران عن دور تريز، فبينما تريز تمثل دور المرأة الوالهة المتقلبة على نار الأسى واللوعة، إذ بلوران يتخذ له صفة الصديق المخلص الرقيق، فهو يبذل وسعه ليخدم المرأتين، ويختص مدام راكان بعنايته وحبه وحنانه.. وأصبح وجوده يكاد أن يكون ضرورة، وأصبح حكمه ملزمًا.. انفرد يومًا بمدام راكان، فقال لها بصوت راجف خائف: "إني خائف على تريز.. فهي مضعضعة مستضعفة..".

واستعبرت عيناه وهو يستتلي: "أجل، إني خائف عليها، فقواها تنهار كل يوم عن اليوم الذي سبقه ..".

استمعت العجوز إلى النذير وقلبها يتفطر.. واستأنف هو: "لقد حطمها موت كميل العزيز، فهي كما أرى تحتضر، ولن يدخل السلوان إلى قلبها شيء، لن يبرئ أسقامها شيء.. أواه..".

كانت هذه الأكاذيب والأخاديع تستمطر مدامع العجوز.. وكانت كلما طرق سمعها اسم ابنها تستخرط باكية..

لاحظ لوران التأثر الذي كان يخلفه في المرأة نطقه باسم كميل، فشرع يعدد مناقبه ومآثره، ويتحسر على أفول نجمه اللامع.. وكلما تلاقى ناظري تريز كان جسده يهتز من التأثر ويخيل إليه أن ما قاله لا يتعدى الصواب، وأن "كميل" كان مثال الشباب..

وبينما كان ميشو وتريز في أحد أيام الخميس ينتظران صعود الآخرين إلى غرفة الاستقبال، إذ بلوران يلج القاعة، ويتقدم من تريز فيسألها عن صحتها، ثم يجلس في مكان قريب منها. فمال ميشو على مدام راكان وأشار إلى لوران وقال بصوت خافت: "هذا هو الزوج المنشود.. لا تتأخري، قومي بالإجراءات السريعة، وسنساعدك إذ اقتضى الأمر..".

وتبسم ميشو بسمة عريضة...

أما مدام راكان فقد شعرت بأن شعاعا من النور قد أضاء فجأة، ورأت، في لمحة خاطفة، الميزات الجمة التي ستجنيها من هذا الزواج.. فمن شأنه، إن تحقق، أن يدعم الأواصر التي ربطتها وربطت تريز بصديق ابنها– بالرجل الطيب القلب– وهي بذلك لن تجلب إلى بيتها رجلًا غريبًا، بل ستجلب رجلًا من الأسرة، فتضيف إلى شيخوختها مسرة حرمتها زمنًا، كما أن تريز لن تكون خائنة لعهد كميل ولذكراه إن تزوجت صديقه الحميم..

وقبل ذهاب لوران في تلك الليلة، هرول ميشو إلى مدام راكان فأسر إليها شيئا، ثم تأبط ذراع لوران وخرج معه. ولما أفضى إليه بالفكرة

المختمرة، أجابة بأنه يحب أرملة صديقه كما يحب شقيقته، ولن يراوده الفكر في أن يجعل منها زوجًا.

ولما ألح عليه ميشو بالقبول مبينا الفضائل والمزايا، جعل لوران يتظاهر شيئًا فشيئًا بميله تحبيذ الرأي، كما تظاهر بأنه إن وافق، فهو لا يوافق إلا معتقدًا بأن الفكرة هي مفاجأة من السماء أملاها الإخلاص والواجب.

في الوقت نفسه، كانت مدام راكان مقبلة على تريز تحدثها حديث القلب، وتقنعها بصواب الرأي.. ولما صادفت منها إعراضًا واوزارًا جعلت تنتحب..

وعندما صاحت تريز أنها لن تضع أيًا كان في موضع كميل من قلبها، فاجأتها العجوز بأنها تحب لوران كما أحبت ابنها، فطأطأت تريز رأسها وأجابتها بصوت مشرب ألمًا: "على رسلك يا عمتاه.. فلوران بمثابة الأخ، أحبه كأخ لي....". وصمتت بغتة، ثم استتلت وهي تطرق برأسها وتمسح الدموع: "بيد أني سأنصاع لك وأستجيب لرغبتك وأحاول جهدي أن أحبه كزوج... لا يحدوني إلى ذلك إلا رغبتي الصادقة بإسعادك.. لقد كان رجائي الوحيد أن أبكي "كميل" ما شاء الله أن أبكيه.. لقد كان أملي معقودًا على تمضية أيامي في حزن على حبيبي وزوجي، ولكن لا أجد مندوحة من تجفيف مدامعي ما دامت سعادتك تتوقف على الأمر..".

في الليلة التالية تمت خطبة القاتلين– خطبة لوران وتريز..

في الليلة التالية صاتت عظام كميل..

في الليلة التالية قلب القدر صفحة جديدة... صفحة ملوثة..

شبح الغريق

حان اليوم الموعود، فتنبه لوران وتريز من رقادهما وهما أسعد ما يكون حالًا، وطمأن كل منهما نفسه بأن آخر ليالي الروع قد ولت، وسيظلهما سقف واحد.. وبذلك يدفعان معا عن أنفسهما الخطر، فيقفان كتلة واحدة في وجه عدوهما اللدود– الغريق..

في ذلك الصباح جلست تريز في سريرها وثغرها مفتر عن بسمة عجيبة، وعيناها تقيسان السرير الكبير، وعقلها يشتوف الآتي ويكتنه ما وراءه. ولم تلبث بعد يسير أن غادرت الفراش وجعلت تتلفع بثيابها، وتنتظر قدوم سوزان التي عرضت خدماتها عليها، وأعربت عن رغبتها في مساعدتها في ذلك الصباح الأغر– صباح الزفاف..

وجلس لوران أيضًا في سريره واستغرق في الفكر، فها هو أخيرًا يترك هذا الكهف المقيت ليحيا في جوار امرأة يحبها.. وكان الطقس قارس البرد في تلك الباكرة، فجعل يرتعد ويرتعش، كما جعل يعلل النفس اللاغبة بقرب ساعة الفرج، ويمنيها بالدفء وصفاء العيش..

وكانت مدام راكان منذ أسبوع مضى دست في يديه مبلغ خمسمائة فرنك عندما اكتشفت أنه صفر اليدين. وقد أخذ هو المبلغ شاكرًا، فاشترى به ما يحتاج إليه من ثياب، كما اشترى الهدايا التقليدية لتريز..

اشتمل لوران ملابسه الجديدة بعد أن اغتسل وتضمخ بالطيب.. وبغته ألم شديد في عنقه عندما حاول أن يشد ياقته، فتطلع إلى المرآة، فرأى، والرعب آخذ منه كل مأخذ، ما حاق بعضة كميل من الاحمرار.. فعض على شفتيه، واستحال لونه إلى لون الزعفران.ولما فرغ من ارتداء ملابسه غادر غرفته إلى الدهليز، وهو لا يجرؤ على تحريك رقبته حتى لا ينتابه الألم فيذكر، وتروعه الذكرى.

ولكنه عرج على مكان عمله، بعد أن استأجر عربة، فجاء بأحد زملائه، ثم ذهب معه إلى منزل ميشو فاصطحبه أيضًا.. ولما وصل الثلاثة إلى الدكان، التقوا شاهدي تريز، غريفي وأوليفيي، كما التقوا سوزان التي كانت ترمق العروس كما ترمق طفلة دميتها الصغيرة الجميلة.

بالرغم من عجز مدام راكان عن المشي، فقد أصرت على مرافقة ولديها– كما دعتهما– إلى كل مكان يذهبان إليه.. وهكذا حملوها في عربة..

انتهت مراسم القران، وركب العروسان عربتهما، وخيل إليهما أن الهوة كانت تفصل بينهما قد ضاقت أكثر فأكثر.. أمضى الجميع وقتًا ممتعًا في أحد الفنادق، حيث صعدوا وشربوا ولهوا إلى ساعة متأخرة من الليل، رجع بعدها العروسان والأم إلى بيتهم.. فصعدت العجوز إلى حجرتها وهي تغمغم بالدعاء، ودخل لوران وعروسه إلى مخدع الزوجية..

أوصد لوران الباب وراءه، وأجال طرفه في أنحاء الحجرة. كانت

النيران متوهجة في الموقد فتعكس أضواءها على السقف.. وكانت رائحة الورد تتضوع في الغرفة فيفغم عبيرها أنفي الشابين.

أرادت مدام راكان أن يبدو المكان أشبه بعش للمحبين، وقد وشت السرير بقطع ملونة من القماش، ووضعت على حافته أشرطة حريرية، كما وضعت في ركنين متقابلين أصيصين من الورد والزهر.. وكان جو الغرفة يوحي بالسلام، ويضرم نار الغرام...

جلست تريز قرب الموقد وحدقت إلى ألسنة اللهب. كان لباسها أبيض ناصعًا، وقد برز من أعلاه كتف كالعاج، تهدلت عليه ضفيرة من شعر أسود كالليل.. وانحنى لوران فلثم الكتف العاري، فأجفلت، ورمته بنظرة غامضة تجلى فيها الرعب.

وتمالك جأشه، فجلس قبالتها. ومضت الدقائق بطيئة، ولم يدن أحدهما من الآخر.. فأين العاطفة المضطرمة؟ أين الحب المتأجج؟ إنهما وحيدان الآن، إنهما في مأمن من أعين الرقباء، وليس لهما إن أرادا إلا أن يمدا أيديهما فيتعانقا ويتساقيا الهوى..

بيد أن عبئًا ثقيلًا ضغط على قلبيهما، فطفقا يتبادلان النظرات دون أن تنبثق منها تلك الرغبة.. وطفقا يتألمان من الصمت والبرود والجمود– إن أحلامهما المتقدة المشبوبة قد انتهت إلى الحقيقة المرة– لقد قتلا "كميل" وتزوجا... ولكن شفتي لوران ما كادتا تلمسان كتف تريز، حتى حلت بهما الرجفة، وانتابتهما القشعريرة، بحثا في قرارة قلبيهما عن جزء

ضئيل من تلك العاطفة الجياشة التي تلظت نيرانها في هذين القلبين، إلا أنهما لم يجدا شيئًا... ما وجدا إلا الهم والغم والشقاء..

حاول لوران أن يتكلم عن الحب، وأن يستعيد ذكريات الأيام الخوالي، فمال عليها وقال:

"هل تذكرين أمسياتنا معًا؟ هل تذكرين كيف كنت أسترق الخطى إلى هذا المخدع؟ إننا الآن حران، وفي إمكاننا إشباع غرائزنا التي كبتها الحرمان... هل تذكرين تلك الليلة التي حلمت فيها أني قضيت بين أحضانك ليلة كاملة، وتنبهت من نومي على قبلاتك؟".

انقضت تريز كعصفور بلله المطر، واستدارت إلى لوران ونظرت إلى وجهه، الذي عكست النيران أضواءها الحمراء، في وجل وذعر.

واستأنف الشاب حديثه بصوت متهدج: "وها نحن نظفر بأمنياتنا، فنجتاز العقبات ونتخطى الحواجز، ونفوز بضالتنا.. إن المستقبل لنا، والسعادة ملك يميننا.. أليس كذلك؟ سعادة ملأى بالهوى، مفعمة بالحب. إن "كميل" تلاشى من الوجود، وليس لنا أن نخشى أذيته، أو نرهب نقمته ولعنته..".

انقطع عن الكلام، وخيل إليه بغتة أنه يوشك على الاختناق..

وتبادلا النظرات، وانطلقت ذكرياتهما من عقالها، وجلس شبح كميل في مكان الوسط بينهما، فأحسا بقشعريرة باردة، واشتما رائحة

منبعثة من جيفة.. فجمدا كأنهما سمرا.. وأخذت أعينهما تسرد في آن واحد قصة مروعة.. وقفز لوران من مكانه كمن لدغته أفعى، فخلع حذاءه ووضع عباءته على كاهله، وعاد إلى الجلوس.. وتبادلا الكلام..

طرقا مواضيع تافهة بعيدة كل البعد عما فكرا فيه منذ لحظات، إلا أن أعينهما فضحت سريرة كل منهما، فعندما تكلم لوران عن الزهر والنار، أيقنت تريز أنه كان يذكرها بالصراع المرير الذي وقع في القارب..وعندما أجابته تريز بالإيجاب أو النفي، أدرك لوران أنها تقول بأنها تتذكر أو لا تتذكر بعض تفاصيل الجريمة..

وران الصمت، إلا أن صمتهما كان هو الآخر ينطق بجريمتهما.. واختلطت أفكارهما، واهتز كيانهما، وهتف هاتف لم يسمعه إلا هما: "لقد قتلكما "كميل"، وها هي جثته مسجاة بينكما، تجمد دمكما وتثلج أطرافكما..".

وارتفع الصوت، وما جرح يرتفع حتى كاد يصم آذانهما.. واهتزت الغرفة من الدوي، فجن جنونهما.. وانتصب لوران واقفًا، ودنا من تريز وهو يقول: "قبليني...".

فأشاحت وجهها.. ولمحت وهي تفعل ذلك الجرح الملتهب في عنقه.. وعاد يقول: "قبليني، قبليني...". فهزت رأسها، ثم وضعت أصبعها على الجرح وقالت: "ما هذا..؟".

فخيل إليه أن أصبع تريز غاص في عنقه، فوثب إلى الوراء وأن أنينًا مروعًا، ثم انقض عليها وأمسك رأسها بوحشية، وأدنى فمها من عنقه، فحاولت التخلص من قبضته، وزفرت بصوت متحشرج، ثم تهالكت على المقعد وهي تنشج بعد أن أرخى يديه.. وخمدت النيران في الموقد، ورأى لوران شبح كميل في ركن من الحجرة، وكان وجهه أزرق منتفخًا، فصاح: "انظري... انظري...".

فتطلعت تريز إلى المكان الذي إليه، وهمست كأنها تخاف أن يسمع كميل: "إنها الصورة التي رسمتها له أنت..". فقال: "أزيليها من مكانها، أسرعي..". قالت: "كلا.. إني خائفة". قال: "أواه أزيليها يا تريز..". قالت: "كلا، كلا..". فقام من مكانه وحملها بين يديه، ثم أرغمها على التقدم من الصورة وهو يخفي وجهه وراء رأسها..ولكنها أفلتت منه، فاضطر إلى التقدم وحده.. واستمرت العينان الجامدتان تنظران إليه بحقد.. فنكص على عقبيه وهو يقول: "أنت على حق، فلنتركها في مكانها، ولنطلب إلى عمتك أن تأخذها إلى غرفتها عندما يطلع النهار".

وعاد إلى الجلوس، وسمعا فجأة ركزًا خفيفًا، فتراءى لهما أن الضحية تحاول اقتحام الباب.. فاستولى عليهما هلع لا يعرفان له مثيلًا.. ثم تناهى إلى سمعهما مواء.. وبرز القط فرانسوا، فقفز على المقعد، وأخذ ينظر بضراوة.. فزاغت عينا القاتل، وأيقن أن روح كميل تقمصت القط..

وتذكر بغتة ما قالته تريز عن القط، فأيقن أن الحيوان محيط بكل شيء، وأنه يريد أن يقذفه من النافذة.. ولكنه لم يجد الشجاعة الكافية..

ومضت ساعات الليل بطيئة وانية، ولاحت نجمة الصبح، فتنفس الزوجان الصعداء، والتفت لوران إلى صورة كميل وتبسم ساخرًا من نفسه، ثم أزالها من مكانها دون أن يشعر بشيء من الخوف الذي شعر به منذ ساعات..

وضحك بعد ذلك ضحكة جوفاء، وقال: "أنت الملومة على هذا القلق، فاحذري يا تريز، وإلا سقطنا تحت عجلة الجنون إن سمحت لهذا السخف أن يستحوذ علينا..". وقهقة ثانية دون أن يعلم السبب..

هذه كانت ليلة عرسهما.. وهكذا أمضياها.. هم وغم وقلق.. فزع وهلع ورعب.. شبح يصول ويجول.. في خيالهما المريض.. كانت الليالي التالية أقسى من الليلة الأولى... وكان الشقاء من نصيبهما، كان اليأس شعورهما المشترك، أما الحب، وأما الشهوة، فأمران زالا وتلاشيا.

واكتشف لوران بعد حين أن تريز لم تكن أرملة ساعة بنى عليها.. اكتشف أنه اقترن بامرأة لها زوج– زوج غريق.

وقهقه كميل تشفيًا.. قهقه الغريق الميت حتى صمت قهقهته آذان قاتليه.. وصمم لوران أن

يطرد الجثة من مضجعه.. في البدء تجنب السرير، ثم جعل ينطرح عليه بملابسه، ثم حرص ألا يضع يده على تريز، ثم قرر في ساعة يأس أن يحتضن زوجه فيسحقها بين يديه بدلًا من تركها لشبح لقمة سائغة شهية.. وكان يرجو من هذا أن يشفي نفسه من أرقها.. كان يرجو أن يكون لقبلاتها فعل الترياق في جسده المتسمم..

ولكن كل شيء حاوله، وحاولته، وكان لا طائل تحته.. لقد تشبث الواحد بالآخر، كما يتشبث الغريق بحبل النجاة، ولكنهما أبصرا بالقتيل يتغلغل بينهما، فانهارت البقية الباقية من عزيمتهما، وتلاشت مقاومتهما... فابتعدوا ونأيا..

وقهقه كميل لا تفارق سمعهما.. ينظر إليهما كلما ناما على طرفي السرير وهو في الوسط... جعل ينظر ويضحك... وجعلت تريز ترتجف خوفًا... فمن يدري قد ترى الجثة خور ولوران فتطبق عليها بيديها العظيمتين..

حاولا محاربة الخوف بالخوف..حاولا أن يتبادلا الحب المجنون... ولكنهما فشلا... أخفقا..وها هما يستمعان، ولا ينفكان يستمعان إلى قهقهة كميل المدوية المجلجلة..

وهكذا جعل الزوجان يعيشان حياة مزدوجة، حياة الظلام التي كانا يقضيانها في ظلام، وحياة النور التي كانت تبدأ مع مطلع الشمس، عندما يلاشي ضياء النهار أشباح الليل– وكان الاثنان لا يتذوقان الراحة والهدوء

إلا متى افترق كل منهما عن الآخر، فيذهب هو إلى عمله وتهبط هي إلى الدكان– ومع ذلك فأمسياتهما كانت هادئة وادعة طالما كانا يجلسان مع مدام راكان أو مع غيرها من الأصدقاء.. ولكنهما ينقلبان إلى مخبولين معتوهين متى اضطرا إلى الدخول إلى مخدع العذاب..

وما أكثر ما تحدثت العجوز عن فيرنون، وما أكثر ما وضعت الخطط للمستقبل، وكانت تتجنب ذكر اسم ابنها حرصًا على راحة الزوجين، وتفاديًا لما تجره عليهما هذه الذكرى من تباريح، ولكنهما كانا دائمًا في شغل عنها وعن حديثها بأفكارهما السوداء، وأذن هذا الملاذ الأخير المتجسد في مدام راكان بزوال، فقد زحف مرض الشلل على جسد العجوز ببطء وإصرار، فأيقنا أن ذلك الوقت الذي تعجز فيه المرأة عن الحركة والكلام آت لا محالة... فصوتها أخذ يخفت باستمرار، وحركتها تفتر دون انقطاع، وحواسها تفقد قوتها شيئًا فشيئًا، حتى استحالت مع الوقت إلى مجرد شيء..

واستبد الهلع بالزوجين وهما يشاهدان تفاقم الوهن الذي طرأ على المرأة، فبذلا وسعهما لإرجاء ذلك اليوم الخوف الذي تفقد العليلة فيه جميع أحاسيسها، فما بخلا بمال، وما تركا طبيبًا يتوسمان فيه الخير إلا واستدعياه، فهما لا يشاءان أن تنقلب غرفة الطعام إلى مكان يشبه مخدع النوم، إلى مكان ترتع فيه الأرواح وتمرح الأشباه، ويعيث الخوف في ذهنيهما فسادًا.. وقدرت المرأة لهما هذا الإخلاص، وأثر فيها حنان الزوجين الوفيين، فكافأتهما بتحويل ثروتها إليهما، فهي لم تكن تتوقع

بعد مقتل ابنها أن تخطى بما يعوضها عن حنانه وإخلاصه، فلما فاض عليها حدب تريز ولوران شكرت الله وأيقنت بأنها ستغمض عينيها الإغماضة الأخيرة في راحة وسلام.

واستمر الزوجان في تلك الأثناء يعيشان حياتهما المزدوجة، فإذا ما جنهما الليل، وانفردا في مخدعهما، أخذا يصرخان من كبد حري، وأخذا يكافحان الجنون المستشري دون جدوى.. وإذا ما شرقت الشمس وأغرقت الدنيا بأشعتها، أفرخ روعهما، وانتعشت روحاهما، وتنفسا الصعداء مما دهمهما في ليلتهما الليلاء..

وما شك أحد في أمرهما، وما خطر على بال أحد ما يتعرض له هذان الشخصان من الهلس واختلاط الفكر والتهيؤات العصبية، بل إن مظهرهما ومخبرهما كانا يدخلان في روع أصدقائهما بأنهما مثال الزوجين السعيدين المتفقين الرافلين في حلة من حلل النعيم، حتى إن صديقهما غريفي كان يدعوهما بـ"اليمامتين السعيدتين"..وكلما شاهد ما يرتسم في عيونهما من أمائر التعب، كان يقول لهما مداعبًا: "ومتى يا ترى نرى الوليد؟".

وكان ميشو يقول: "سقيًا لهما من محبين.. إنهما يؤثران الإخلاد إلى الصمت، ولكنني أراهن بأنهما يتبادلان القبل بل يلتهمان الواحد الآخر كلما احتواهما عش غرامهما..".

ولم يدر سواهما أن جثة كميل تقيم معهما.. لم يدر إلأ هما أن

"كميل" كان ملازمًا لمضجعهما.. لم يدر غيرهما أن وجهيهما، الهادئين المستسلمين، كانا ينقلبان إلى وجهين محتقنين، يسودهما الخوف والفزع..

ما درى إنسان بذلك.

ما درى إلا هما، وشبح كميل...

مضت أربعة أشهر على زواج القاتلين، أخذ لوران بعدها يفكر باجتناء الثمرات التي منى نفسه بها، ولم يكن ليتأخر عن الفرار من تريز وشبح كميل بعد زواجه مباشرة، لو لم تلح لناظريه هذه الثمرات الناضجة التي حان قطافها. فانتظر على مضض وقاوم الخوف والأرق، وصابر وصبر، حتى لا يضطر، إن طاوع مشاعره وهرب، إلى الرجوع ثانية إلى حياة الفاقة والعوز..فهو ببقائه يأمن الجوع، ويستطيع متى شاء أن يترك عمله ويركن إلى الراحة. ولم يتأخر كذلك عن الفرار بثروة الأم لو لم تبادر هذه، عملًا بنصيحة ميشو، إلى التنازل عنها لتريز..

وأخبر المرأتين في إحدى الليالي أنه قدم استقالته من عمله، ولكي يلاشي القلق الذي بدا على وجه زوجته عقب متداركًا بأنه سيستأجر غرفة يزاول فيها فن الرسم. ثم طفق يصف لهما ما تسببه له وظيفته من الضيق، وما يتيحه له الفن من الشهوة والكسب..

وعضت تريز على شفتيها من القهر، ولكنها كتمت ما داخل

حسها.. فلما سألها لوران رأيها فيما أقدم عليه، هزت رأسها ثم قالت: "إنك بذلك تفقد دخلك الوحيد فتصبح عالة علينا".

فحدجها لوران بنظرة ينبعث منها الشرر،وكاد يرد عليها، إلا أن مدام راكان أعربت عن رضاها وموافقتها، وقالت بأن رغبته محترمة، وأنه يجب أن تتهيأ له فرص إظهار موهبته العظيمة وفنه الرفيع..

ولا جرم أن المرأة العجوز قد أفسدت لوران كما أفسدت "كميل" من قبله.. فهي تلاطفه وتلبي جميع طلباته، وتوافق دون أي تردد على جميع آرائه واقتراحاته.

وهكذا استقر الرأي على أن يستأجر غرفة لعمله، ويخصص له مبلغ من المال مقداره مائة فرنك لنفقاته، شريطة أن تتدبر الأسرة أمورها بطريقة تبقى معها الثروة الأصلية سليمة..

وما كذب لوران خبرًا، فقد استأجر غرفة صغيرة جهزها بأدوات الرسم، ونقل إليها مائدة وبعض المقاعد. ثم ودع زملاءه وباشر عمله الجديد، ولكنه لم يفعل شيئًا سوى الذهاب إلى غرفته، وتزجية الوقت في التدخين والاستلقاء على الأريكة التي اشتراها لهذه الغاية، وكان عندما تأزف ساعة الغداء يذهب إلى البيت فيطعم بسرعة ويرجع ثانية ليقضي عدة ساعات أخرى في راحة وهدوء. ولما جاءت زوجته يومًا إلى غرفته أبى أن يفتح لها الباب، وزعم فيما بعد أنه كان غائبًا ساعة أتت.. ولكنه امتنع عن استقبالها حتى لا تأتي بكميل إلى هذا المكان الأمين..

ولكن الكسل أضجره في نهاية الأمر، فبادر إلى رسم رأس رجل، وجعل يعمل ساعة أو ساعتين ثم يغادر المكان فيتسكع في الشوارع.. وانتهى من عمله الأول، فأقبل على عمل ثان ثم ثالث، وبينما هو يتجول في طرقات باريس في أحد الأيام التقى صديقًا له كان يتخذ الرسم حرفة، فألح عليه أن يأتي إلى مرسمه. ولبى الصديق دعوته، وما كاد يرى الصورة التي رسمها حتى امتلأ عجبًا، فعهده بصديقه تافه الفن لا يمت ذوقه إلى التصوير بسبب، ولكنه رأى نفسه الآن إزاء رجل تدل على طول باع، فخطوطه خطوط معلم، وضربات ريشته ضربات فنان. ونظر الصديق إلى لوران فرأى عجبًا، رأى أمامه رجلًا رق جلده ونحل وجهه وبان القلق والانفعال في أساريره وحركاته.. فأيقن أن ثمة أمرًا جللًا قد وقع له، فغيره... وأن ظاهرة خارقة قد أصابته فأحالته إلى فنان موهوب تبشر أعماله بمستقبل زاهر باهر في عالم التصوير..

ولا غرو أن جريمته التي قاسى من جرائها الويل أرهفت حسه، وصقلت شعوره، وفتحت له آفاقًا واسعة من الخيال.. ولا جرم أن هذا الانقلاب العظيم، الذي استحوذ على نواحي حياته، كان السبب الأول والأخير فيما اكتسبه من مقدرة وكفاءة وعلو كعب..

وقبل أن يغادر الصديق المكان قال للوران: "لي ملاحظة واحدة يل صديقي على عملك الذي قمت به، فالوجوه في جميع الرسوم متشابهة متقاربة، كأنك ترسم وجهًا واحدًا وحسب، وتغير فيه قليلًا في كل صورة..".

وتفصد العرق البارد من جبين لوران بعد ذهاب صديقه، فجعل يتأمل الصور المختلفة، وما لبث أن قال بصوت متحشرج: "إنه على حق، فهي متماثلة متشابهة... وكأنها مقتبسة من وجه كميل وملامحه..".

وأمسك بالريشة وجعل يصور، فكانت الصور التي رسمها تنطق بملامح كميل، فألقى بها من يده بعنف، وقد أيقن أن القدر يسير يده، وأن يده تعصي إرادته فتصور ما تأباه نفسه وتعافه روحه، ثم أقبل ثانية على ريشته يرسم بها خطوطًا لوجوه الحيوانات، فكانت القطط التي مثل تقاطيعها والكلاب التي أظهر ملامحها تشبه "كميل" في بسمته وتكشيرته، وفي لفتته ونظراته..

جن جنونه وجعل يمزق القماش والورق ويحطم ما تصل إليه يده من أدوات، وآلى على نفسه أن يهجر عمله، فهو لن يقوى على منأواة ما تمليه عليه هذه القوة الخارقة.. إنه عبد مطيع ويده أسيرة محنته.. وكميل واقف له بالمرصاد.. يعبث به ويسخره في التنكيل بذاته..

استسلام وأسى

كشر المرض الماكر عن أنيابه، وتغلغل الشلل الذي استمر يزحف شهورًا عدة إلى ضلوع مدام راكان وإلى فمها..فبينما هي في إحدى الليالي تتكلم إلى ولديها العزيزين انقطع صوتها بغتة، فحاولت أن تصيح وتصرخ، ولكن حشرجة كحشرجة الموت أفلتت من حلقها.. فقد استحال لسانها إلى حجر، ويبست يداها وساقاها، وأصبحت عاجزة عن الحركة، عاجزة عن النطق– أصبحت بكماء مشلولة..

قفز لوران وتريز من مكانيهما وهما أشد ما يكونان خوفًا.. وجعلا يتكلمان معها ويحاولان، ولكنها نظرت إليهما في استسلام ورضوخ، فأيقنا أن المرأة لم تعد سوى جثة ينبض فيها طرف من الحياة، وأنها تراهما وتعي كلامهما، ولكنها لا تستطيع أن تخاطبهما.. فلهفت أنفسهما وتلاهما ذعر وأسى... لأنهما فقدا آخر مرجع لهما، فقدا الراحة التي كانا يشعران بها معها كل ليلة قبل أن يتجسد لهما شبح كميل..

وغدت لياليهما بؤسًا وضنى، فالمرأة المتهالكة في مقعدها لا تستطيع أن تشغلهما بحديثها، وجمودها الدائم لا يبعد عنهما الشبح

القاتل... وهكذا تضاعف الوصب الذي كان يجثم على صدريهما كالكابوس..

لكن عينيها الميتتين كانتا تدفئان قلبيهما بعض الشيء، وحركة بؤبؤيهما كانت تبعث قليلًا من الطمأنينة إلى مشاعرهما.. بيد أنها كانت تبدو كلما أغمضت هاتين العينين كأنها جثة بلا روح، وكان في هذا ثالثة الأثافي لهما، كان فيه الانهيار العصبي، والقتل البطيء، وعذاب السعير الذي تفتحت أبوابه على مصاريعها كلما جمعهما الليل ونفخت الروح في الأشباح، لهذا كانا لا يدعانها تغمض لها عين، كانا إذا ما أخذها الوسن يهرعان إليها فيهزانها من كتفيها هزًا عنيفًا حتى تضطر إلى تمضية ساعة أخرى معهما.. وكانت المسكينة تقاوم النوم ما وسعها الأمر، وكان هذا الحب الذي تنم عنه عواطفهما يضفي عليها ألوانًا من السعادة والسرور..

أما في النهار فقد كان لوران يبارح الدار، وتريز تنزل إلى الدكان، وتبقى الأم وحيدة، لا يؤنس وحدتها أحد غير تريز التي كانت تصعد إليها بين الوقت والآخر، فتقضي لها حاجاتها وتعود أدراجها بعد قليل. ولم تنقطع في أثناء ذلك اجتماعات ليلة الخميس، وكانت عبارات المديح والإطراء لتريز وزوجها تنهال على مسامع الأم، فتخفض المرأة عينيها وتتدحرج على خدها دمعة تعبر عن شكرها العميق لهذين المخلصين..

وأعجب ما كان يجري في خلال تلك الاجتماعات إقبال الأصدقاء على العجوز المريضة، يحدثونها ويجيبون أنفسهم، كما يفعل امرؤ مع

دمية صماء لا حياة تختلجها.. وهنأ ميشو وغريفي أنفسهما على تصرفهما، واعتبرا عملهما هذا أريحية يشكران عليها..

تبجح غريفي بأنه يستطيع متى نظر إلى عيني القعيدة الجامدة الحركة أن يفهم ما تطلبه نفسها، فإذا ما جد الجد وشاءت المرأة أن تطلب أمرًا ما، كان هو آخر من يعلم... ومع ذلك أصر على الزعم بأنه أقدر من قرأ الأفكار واستخرج الدفائن والأسرار..

ولولا مهارة تريز وفطنتها، لعانت المرأة العاثر الأمرين. فتريز كانت تدرك في لمحة خاطفة ما يجول في ذهن عمتها، فتسارع إلى تلبيته.. وتريز كانت تقرأ ما يلبثل في نفس هذه الميتة الحية كأنها تقرأ في كتاب.. فالمرأة الفاقدة الحركة لم تزل محتفظة بإدراكها وذكائها.. وعقلها السليم كان أشبه بعقل إنسان يدفن حيًا على عمق قدمين أو ثلاث، ليستفيق من هجعته، فيصيح ويصرخ ويكافح.. ويمر فوقه الناس فلا يسمعون صوته المريع، بل يمرون مر الكرام، وكأنهم يمرون عرى رغام، أو على حطام..

وكلما نظر لوران إلى وجه الميتة الحية التي أطبقت شفتيها على سر، وانطوى محياها على شعور خفي، وشعت الحياة من مقلتيها فقط، كلما قال لنفسه: "من يعلم؟ من يعلم بماذا تفكر؟ لا بد أن هناك مأساة قاسية تعتل في هذا الجسد الميت..".

ولم يكن لوران مصيبًا في حدسه، فمدام راكان سعيدة بعناية ولديها العزيزين... فقد طالما حلمت بمثل هذه النهاية، أن تموت ببطء وعن

كثب من أحبائها.. ولا شك أنها كانت ترغب في الكلام لكي تعرب عن شكرها لأصدقائها الذين يتمنون لها سلام القلب وراحة البال. بيد أنها أذعنت للقدر، فحياتها الهادئة الهانئة وطبيعتها النبيلة، صبراها على بلواها. لقد انقلب ثانية إلى طفل، وجعلت تقضي أيامها دون تذمر، فتحدق إلى الفضاء، وتستعيد ذكريات الماضي الحلوة والمرة..

وها هو إلا شهر حتى ارتاضت على حياة الجمود، وارتاحت إلى العيش في صمت وهمود، وكان ملاذها في خالقها...

زاد جمال عينيها، وانبعث منهما بريق صاف متألق، وأصبحت هاتان العينان البراقتان بمثابة لسانها وبنانها والمعبر عن فكرها... كانت عيناها عيني أم رؤوم، وكان هذا الإنسان المقيم في عينيها، يتحدث ويشكر ويطلب الخير والسعادة لكل إنسان.. كان هذا الإنسان يبتسم، وكانت بسمته اللطف المجسم والإيمان الصريح...

واعتقدت هذه التاعسة أن نهايتها أصبحت قريبة، وأنها لن تمتحن بمصائب أخرى قبل انعتاق روحها، ولكنها كانت مخطئة، فقد جرى في إحدى الليالي ما لم يكن في الحسبان، فاستعر نار شقائها من جديد، فوجودها بين الزوجين لم يعد يخفف عنهما أو يطرد من مخيلتهما شبح كميل، فهما كلما غرب عن بالهما وجودها، استحوذ عليهما الجنون وتراءى لهما شبح كميل...

في مثل هذه الأوقات كانا يتلفظان بكلمات حرصا من قبل على كتمها، وبعبارات كانا في السابق يرتعدان لمجرد ظنهما بأن مدام راكان قد سمعتها.. وأدركت العجوز فجأة ما جرى، ورأت كل شيء، وحملقت بعينيها، واختلجت شفتاها المطبقتان.. وانقلب الإنسان الطاهر الباسم القابع في عينيها، إلى شيطان ينفث الحقد، ويصب النقمة، ويود لو أحرق الناس جميعًا.. ما قاسى إنسان مثل ما قاسته هذه المرأة، فالحقيقة المرة المروعة اخترقت جسدها كالصاعقة المدمرة.. ولو كان في إمكانها رفع صوتها ولعن هذين القاتلين، لقلت آلامها ونقص عذابها، ولأرغمتها على إبقاء هذه القوة المتفجرة في أعماقها لتضيف إلى حزنها حزنًا وإلى موجدتها موجدة.

خيل إليها أن القاتلين ذاكرا على مسمع منها ما جنته أيديهما ليتمتعا بعذابها وليلهوا بمصابها.. واصطرع الأسى مع الغيظ في قلبها، وبذلت جهدًا يفوق الطاقة البشرية حتى تستطيع أن تلقي عنها هذه القيود وتحرر فمها من كمامته، فتشق بذلك قناة يسيل فيها فيض يأسها، ولكن جهودها باءت بالفشل، وشعرت بلسانها يلتصق باردًا بحلقها.. وأحست أنها موءودة، وأن اللحادين يهيلون فوقها التراب والحجارة..

وزلزل قلبها وتبعثرت حياتها تلقاءها، فأصبحت ركامًا وحطامًا، وأبصرت مآثرها وطيبتها ونبلها وإخلاصها ذرات مفتتة لا قيمة لها.. أهاب بها صوت بأن الحياة أكذوبة.. بل جريمة.. فالقناع الذي لم تبصر وراءه إلا المحبة والصداقة، تهدل الآن وتمزق، لتبصر الدم والنقمة

والعار.. وما منعها إلا بكمها عن الفكر بالحياة، فقد خدعتها طيبتها، وموهت عليها الحقيقة، ولم تطلعها على شؤون الإنسان، أو تدعها تموت في سذاجتها ووداعتها وعماها، والآن لم يبق لها إلا أن تموت وهي تفكر بالحب وتفكر بالصداقة وتكفر بالإخلاص.. فليس في الوجود إلا القتل والحقد..

ماذا ؟ أقتلاه وأخفياه جريمتهما وراء ستار من النفاق، أو بالأحرى، وراء ستار من الفجور؟ أنها تسقط ولا تني تسقط.. إنها تسقط في هوة سحيقة في الجحيم.. وقالت لنفسها: "سأستمر في السقوط حتى أتحطم وأصير كالبلهاء..".

وجعل رأسها يدور على محور فارغ، وظنت أذناها طنينًا صاخبًا... تريز التي كفلتها وأغدقت عليها العطف وتعهدتها بعين العطف والمحبة.. ولوران الذي محضته الحب كما تمحض أم رؤوم ابنها، هما القاتلان...

ودار رأسها على محوره، وعادتها ذكرى حوادث طفيفة أشكلت عليها في الماضي، وتكشف لها اللثام الآن عن أسبابها، وأيقنت بعد قليل بأن روحًا أخرى تقمصت جسدها، روحًا جبلت على الحقد.. ولكنها أدركت وقلبها يتمزق، أنها عاجزة عن الحركة، لا تستطيع الانقضاض على المجرمين، فاستسلمت لشجنها، وأخذت الدموع تسيل من عينيها بغزارة وتتدحرج على خديها... كانت عيناها تبكيان، أما وجهها الذي جمده المرض فلم يتغير فيه شيء. وطغى على تريز شعور

هائل من الشفقة الخائفة، فقالت تخاطب لوران: "يجب أن نحملها إلى فراشها".

فامتثل لوران لزوجته، وعندما أحاط الأم بيديه، ودت المسكينة لو وافتها القوة لتمنعه من لمسها، فالله لن يسمح له بحملها، والسماء تنطلق حممها عليه لتحرقه بها.. ولكن القوة لم ترجع إليها، والسماء لم تصعقه، وهو حملها بين ذراعيه القويتين.. فحدجته بنظرة تقدح بالشرر، فقال بصوت أجش: "انظري إلي..انظري ما وسعك النظر، فلن تأكلني عيناك..".

ورمى بالجسد المتشنج على السرير، فأغمى على المشلولة.. وكان آخر فكر ومض في رأسها مزيجًا من الرعب والاشمئزاز والمقت، فسيحملها لوران كل صباح وكل مساء بيديه الملوثتين بدماء ابنها.. بجسده الغارق في رائحة الجريمة..

هذان اللذان لا ينفكان يراقبان ضوء الفجر، والليل حالك دامس، ليخرجا من خضم انغمسا فيه في الدواهي.

هذان اللذان يبرز لهما من دوارس الرموس شبح ضحيتهما كلما جنهما الليل، ليذكرهما بالإثم الذي اقترفاه.

هذان اللذان أظلم دهرهما، ونأت عنهما آمالهما، ولم يعد يرد عنهما الحمام إلا بقية من رجاء يجيش به صدراهما الدنسان.

هذان اللذان نمت شجرة شرهما في قرارتهما، حتى إذا بسقت أفنانها تغلغل الشر إلى جوارهما.

ما جاء يوم الخميس حتى أظهرا مزيدًا من الفزع، فهل يا ترى يتضح المخفي للضيوف إن أجازا لمدام راكان أن تجالسهم؟

إلا أن لوران بدد مخاوف زوجته، زاعمًا بأن المرأة التي لا تتكلم ولا تحرك ساكنًا أعجز من أن تعرب لأي كان عما يلبثل في صدرها.

فأجابته تريز بخوف: "لعلها تجد وسيلة تبين فيها ما تريد، فأنا منذ تلك الليلة لا أفتأ أقرأ الويل في عينيها".

قال: "لا تخافي، فالطبيب أخبرني بأنها ميؤوس منها، ومهما يكن الأمر فيكفينا همنا وما نحن فيه"..

وكانت مدام راكان تجلس في مكانها ساعة قدوم الضيوف في تلك الليلة، وظهر لوران وتريز بمظهر ينم عن السرور والهناء.وتجاذب الجميع أطراف الحديث، وسألوا العجوز عن صحتها، وما لبثوا أن انهمكوا في اللعب.

وكانت مدام راكان تنتظر بشوق وتلهف هذه الفرصة، كانت مزمعة على بذل جهدها للثأر لدم ابنها.. فلما باشر القوم لعبتهم، استجمعت قواها واستطاعت بعد جهد خارق أن تحرك يدها اليمنى. وذعرت تريز، فنظرت إلى اليد المتحركة بعينين جاحظتين..

وصاح غريفي:"إنها تريد أن تشركنا في اللعب.. أواه، إنها تريد ذلك..".

فاكفهر وجه المشلولة وجعلت تحرك أصبعها ببطء على غطاء المائدة. فتتبعوا حركتها، وهتف أوليفيي بعد قليل: "إنها تكتب اسمك يا تريز، استمري يا سيدي، خطي ما تريدين". اصطكت أسنان القاتلين هلعًا، وكاد يغشى على تريز.. وكاد لوران يفقد رشده.. ظنًا أن سرهما سينكشف الآن.. وكتبت مدام راكان كلمتين، ثم كتبت كلمة ثالثة.. وقرأ ميشو بصوت عال: "تريز ولوران هما...".

ونظرت المرأة إلى القاتلين نظرة تفيض كرهًا، وحاولت أن تكتب كلمة رابعة، ولكن يدها سقطت فجأة من مكانها.. وانزاح الخوف عن صدري لوران وتريز... لقد أخفقت مدام راكان في محاولتها الأولى والأخيرة..

وأغمضت المرأة الخاثرة عينيها، وتضاعف همها... لقد فشلت، فلتمت.. لتمت.. وتمنت أن تنطفئ الشمس. أن تخبو حمرتها. أن يحيق بالمسكونة ظلام.. وبرد.. وفناء...

شهران مضيا، وتلتهما أيام أحلك من الليل.. والقاتلان يترمضان على النار التي انبثقت شرارتها من اتحادهما برباط الزوجية..

نزت البغضاء من قلبيهما، اختلطت رويدًا رويدًا بدمائهما، وكانت كراهيتهما فظيعة شنيعة تكاد تنفجر عنفًا وشراسة. كانا يعلمان حق العلم أن الواحد منهما عبء على الآخر.. كانا يعلمان أن نجاتهما هي في افتراقهما، ولكنهما لم يجدا السبيل إلى الانفصال وبقيا متلازمين على كره، وبقيت نفس كل منهما تتمنى لو ظفرت بالقوة لتنكل بالآخر..

والسحابة القاتمة التي ظللت رأسيهما كانت مشبعة بالغضب على جريمة اقترفاها فحطمت حياتهما وقوضت صروح آمالهما، فهما لا يشكان بأن الشر استشرى، وأنهما سيتألمان ويتعذبان حتى الموت.. ولم يشاءا أن يعترفا أن زواجهما كان عقابهما.. وصما آذانهما عن سماع الصوت الخفي الذي طالما جاهر بالحقيقة، والذي كثر ما قص عليهما قصة حياتهما.

لقد تذكرا الماضي، فأدركا أن خيبة أملهما، في نيل وطرهما من الحياة، هي السبب في هذا الشقاء العارم. فلو تسنى لهما احتضان الواحد الآخر وتقبيل كل منهما للآخر، والعيش في سلام ومحبة، لما ندما على ما فرط منهما، بيد أن جسديهما تمردا على الزواج، فتساءلا بذعر عما يفضي إليه هذا التمرد..

وكافحا كفاح الجبابرة، ولكنهما لم يتحررا من القيود.. فأيقنا، والألم يحز في قلبيهما، أنهما لن ينجوا وأنهما لن يجدا مناصًا من قضاء بقية حياتهما تحت سقف واحد.

واستفحل الخلاف بينهما، وتراءى وكأن القاتلين طفقا يتحينان الفرص لصب جام غضبهما الواحد على شريكه، فتجسس لوران على تريز وتجسست تريز على لوران، ونكأ لوران جرحًا في يد تريز، ونكأت تريز جرحًا في عنق لوران.. وصرخ الاثنان من الألم، وانهالت الصفعات وانثالت اللكمات.

إن وجودهما أضحى ثقلًا تنوء تحته روحاهما، وإن "كميل" أصبح صديق الطرفين وعشيق الحبيبين العدوين.. فكلاهما يكيل التهم للآخر، وكلاهما ينحى باللائمة على الآخر، وكلاهما يناجي روح كميل ويستعديها على الآخر..

وحدث ولا حرج عن شتائمهما المقذعة، فهما ينهيان صراعهما بباقة ضخمة من السباب، ثم يخلدان فجأة إلى الصمت.. وهما يشعران بالتعب وانحطاط القوة، لقد أصبح نزاعهما بمثابة المخدر يتناولانه كلما جفاهما النوم..

أصغت مدام راكان إليهما، وحددت طرفها فيهما، وأخذت تحيط شيئًا فشيئًا بدقائق الجريمة، كما أخذت تتغلغل في أعماق هذين القاتلين اللذين دعتهما بولديها، فقصة ابنها كانت تتلى كالنشرة كل يوم، وفي كل يوم كانت القصة ذاتها تزيد بشاعة ودمامة..

وبينما المشلولة تتوغل بفكرها في الحمأة الملطخة بالدم، طفقت تطلب الرحمة، لقد خيل إليها أنها وصلت إلى أقصى درجات اليأس،

ولكنها اعتقدت بأنها ستستمر رغم هذا في الاتحطاط.. وشعرت بأنها أصبحت تتيه في حلم مرعب لا نهاية له..

لقد كان للاعتراف الأول وقع أليم عليها، ولكن ألمها تضاعف تحت وطأة الصدمات المتوالية التي كانت تصيبها كل يوم.. فالقصة تعاد على مسامعها، والتفاصيل تسرد بإسهاب، والطنين المروع يزداد عنفًا وشدة.

وثالثة الأثافي كان الندم الذي استولى أحيانًا على تريز، فهي تستخرط في البكاء، وتضرع إلى لوران أن يصمت عن الكلام، مع أنهما منذ لحظات كانا بكلامهما يقتلان "كميل" مرة بعد مرة بعد مرة..

واتفق، وهما يتناولان الطعام في عشية يوم خانق شديد الحر، أن احتج لوران على الماء الذي تبرده تريز. فقاطعته متأجمة: "لم أوفق في العثور على الثلج". قال: "لن أشرب إذًا". قالت:"ولم لا؟". قال: "لأنها رديئة، حتى لكأنها مياه مجلوبة من النهر..".

فحملقت فيه تريز مشدوهة ورددت قوله: "من النهر.."، ثم خنقتها العبرات.

فصاح بها لوران وقد فطن إلى ما أجج كربها: "ماذا دهاك؟ ولم تبكين..". "إني أبكي لأني.. أواه.. أنت تعرف السبب.. رباه.. ماذا دعاك إلى قتله يا لوران؟".

"أنت تكذبين.. اعترفي بأنك تأفكين.. فإنني رميت به في السين، ولكنك كنت الحافز..".

"أنا..أنا..". "أجل، أنت.. فلا تضطريني إلى إرغامك على الاعتراف..". "ولكنني لمأمدد نحوه يدًا، لم أدفعه..". "أنت فعلت أكثر من هذا.. أنت تظهرين الدهش، أو تتعمدين نسيان التفاصيل.. فانتظري قليلًا وسأجلو ذاكرتك..".

ومال على المرأة الصغيرة، وصاح والشرر ينبعث من عينيه: "لقد كنت على الضفة، ألا تذكرين؟ فوافقت عن طيبة خاطر وجلبت القارب، ألا تتذكرين؟..".

"هذا كذب وافتراء، فأنا لم أرغب قط في قتله، وما المجرم إلا أنت..". ورفع يده ليصفعها، ولكنه تركها تسقط إلى جانبه، وما لبث أن شرع يذرع الغرفة جيئة وذهابًا، وهو يقول بصوت مخنوق: "تبًا لها.. إنها تقودني إلى الجنون.. ألم تأت إلى غرفتي كالمومس؟ ألم تسلبني رشدي بغنجها ودلالها حتى أجاريها..".

فصاحت بصوت متهدج مبحوح: "أنت القاتل، فلا تحاول التنصل..". "لا بل أنت.. أنت أيتها الزانية.. أيتها الداعر التي وهبتني نفسها منذ اللحظة الأولى.. فاعترفي بالأمر الواقع، اعترفي بأنك غررت بي واتخذت مني آلة تنفذ مآربك..".

وكانت المشلولة تصغي إلى كلامهما وتراقب حركاتهما، وترى والفرح يطغى على قلبها إلى أي درك سقط المجرمان..

إن "كميل" لهما بالمرصاد.. إنه ينتقم على دفعات.. إنه يميتهما كل يوم، ميتة في النهار وألف ميتة في الليل... فليفرخ روعك يا أم كميل.. لتغتبط نفسك أيتها الثاكلة، فعين الله لا تغفل.

شبح القتيل

بدأت تريز عهدًا جديدًا، فقد جعلت تبكي الغريق كلما جلس لوران بجانبها، فأعصابها المنهارة أفسحت في المجال لفيض من الحزن.. فبعد كفاحها المرير ضد شبح القتيل، وبعد قضائها بضعة شهور وهي تكبت الثورة المتأججة في صدرها، شعرت بغتة بأنها لم تعد قادرة على الصمود، فاستسلمت، وتحولت إلى طفلة لا إرادة لها، طفلة تروعها أتفه الأمور، ويستمطر مدامعها ما لا يستحق البكاء...

خيل إليها للوهلة الأولى أن الضحية الذي لم يرهبه الغضب ستلين قلبه الدموع.. وكانت بذلك أشبه بالخاطىء الذي يبغي سيده أن ينزل به القصاص، أو بالملحد الذي يظن أنه يخدع الله بتملقه وريائه.. وأمست المشلولة ضرورة من ضرورات حياتها، فهي تستعملها كأنها مجثى للصلاة، أو كرسي للاعتراف. فكلما شعرت برغبتها في البكاء، جثت قريبًا من المرأة البائسة، فبكت وتضرعت وضربت رأسها بالأرض حتى تخور قواها.

وكانت تحدثها قائلة:"إني خائنة لا أستحق الرحمة، لقد خدعتك وسلبتك ولدك، ولن تغفري لي زلتي... ومع ذلك، لو استطعت أن تقرأي ما في قلبي، لو استطعت أن تري ألمي وندمي، لو استطعت أن تقدري مبلغ عذابي، لأشفقت علي.. أواه.. لا، لا.. ارحميني، أشفقي علي..".

وأمضت الساعات الطوال وهي تهذي بهذا الكلام، فتنتقل من اليأس إلى الرجاء، وتدين نفسها وتصفح عن نفسها..ولم يخطر لها على بال بأن عبراتها وتبكيت ضميرها وندامتها كانت تخضع عمتها إلى كرب ممض.. أما الحقيقة التي لا مراء فيها، فهي أنه لو حاول شخص أن يبتدع طريقة شيطانية للتنكيل بمدم راكان فإنه لن يجد أفضل من هذه التمثيلية التي دأبت على تأديتها كل يوم..

كم قاست المسكينة، كم بكى قلبها الكسير،ولكن ودت لو استطاعت أن تستمطر لعنات السماء على رأس هذه المجرمة بصوت عال، حتى تعلم أن عمتها لن تغفر لها زلتها. ورغم ذلك فقد فرض عليها أن تصغي لكلام تريز، وأن تتحمل العذاب الذي يسببه لها هذا الكلام.

وتمادى بتريز النزق حتى جعلت تقبل عمتها، فقد تظاهرت في أحد الأيام أنها تقرأ في عيني المشلولة ما يود قلبها أن يعرب عنه من الصفح والغفران، فانكبت على الأرض جاثية وصاحت بصوت مخيف: "لقد غفرت لي، أجل، غفرت لي..". ثم قبلت جبين المسكينة ووجنتيها.. واشمأزت أحاسيسها وغثت نفسها ساعة لمست شفتاها الوجه البارد. ولكنها اغتبطت لهذا الاشمئزاز، ورأت فيها عاملًا آخر تجنح إليه كل يوم للتخفيف عنها وتخدير أعصابها..

كانت تستبشر خيرًا وتقول: "لقد نجت.." ثم تعود فتمطر عمتها بوابل من قبلاتها، وهي تناغيها وتهمس في أذنيها: "ألم تصفحي؟ ألم

تغفري؟ لقد فعلت.. لقد فعلت.. إنني أرى أنك صفحت، فعينا تفصحان عن ذلك..".

هذا.. مع أن العجوز كانت تبكي من القهر والموجدة وتود لو كان في عينيها سهام لتصوبها إلى قلب تريز فتصميها وتنتقم لولدها منها...

وما أكثر ما دعتها تريز بالطيبة السماوية، وما أكثر ما أضفت عليها في حضرة لوران النعوت الجليلة.. وكانت تستديرِ أحيانًا إلى لوران فتقول: "أصخ السماء يا لوران، لقد اقترفنا نكرًا، وعلينا أن نكفر عن ذنبنا العظيم.. انظر، إنني أصبحت امرأة أخرى منذ الدقيقة التي ابتدأت فيها أبكي ندمًا، فاقتد بي، ولنجهز معًا بأننا ننال العقاب الحق على ما ارتكبته أيدينا..".

وكان لوران يجيبها كلما سمعها تردد هذا اللغو: "لك الخيار في قول ما تشائين، فأنت شيطانة مجبولة بالمكر والرياء.. فابكي إن طاب لك البكاء، ولكن أضرع إليك أن لا تثقلي علي بدموع التماسيح..".

وكانت تجيبه وهي تحرق الأرم: "أيها الجلف.. أيها الخبيث.. أنت تأبى الإعلان عن ندمك، ولكنك جبان رعديد اغتلت صديقك على غفلة منه..".

ثم تصمت فترة، لتعود فتقول بصوت حزين: "كان طيبًا، وكان قلبه كبيرًا.. ولكننا أثبتنا بصنيعنا أننا وحشان ضاريان..".

فيقاطعها وهو يكاد ينفض عليها:"تبًا لك أيتها الفاجرة.. هل غابت عنك كلماتك؟ هل نسيت ما كنت تقولينه عن قذارته وسخافته وسوء فعله؟".

فتصيح عندئذ وهي تستشيط غيظًا: " كفاك .. لا تحاول الهزء بضحيتك.. فأنت لا تعلم شيئًا عن قلب المرأة.. لقد أحبني كميل وبادلته الحب..".

ويضحك لوران متهكمًا ويقول: "أغبطك على هذا يا تريز، لقد أحببته، أليس كذلك؟ ولا جرم أن حبك لزوجك حفزك إلى اتخاذي عشيقًا لك... وإني لأتذكر مت قلته لي يومًا عندما انطرحت على صدري، إنني لأتذكر كلماتك ساعة صرخت والهة ودعوت الله أن ينقذك من كميل الابله الحيوان...".

"لقد أحببته كما تحب فتاة أخاها، فهو كما عرفت حسن الخلق، نقي السريرة، طيب الشمائل، ومع ذلك قتلناه، أواه... يا إلهي..".

واستطردت بعد أن مسحت دمعها تقول: "كان أنبل منك قلبًا وأرق عاطفة.. وأتمنى على الله لو كان هذا الرجل الحي، وأنت الملحود في القبر..".

فوثب عليها لوران ولكمها لكمة هائلة أطاحت بها إلى الأرض، ثم جثم على صدرها وجعل يضغط على عنقها حتى جحظت عيناها وأزبد فمها.

لقد اكتشفت في هذا العذاب لذة جديدة، فاستكانت له، وودت لو قضى ساعة وهو يضربها ويركلها ويضغط على عنقها.. لقد كان الضرب نوعًا من أنواع السلوان.

غدت منذ ذلك اليوم تعدد في كل ساعة مآثر كميل وحسناته فتقول: "كميل فعل هذا، كميل قال هذا، وهذه هي من شمائل كميل.. كان يحبني من أعماق قلبه".

دائمًا كميل.. دائمًا عبارات من المديح والإطراء تنهال على كميل.. كل ذلك لكي تخلص روحها، وتدعه وحيدًا مع الشبح حتى يوسعه تعذيبًا وتنكيلًا.. ولم يلبث الشبح، الذي كان يلم بلوران في الليل، أن أصبح لا يفارق البيت صباح مساء، فهو في كل مكان، في قاعة الاستقبال، في غرفة أمه المشلولة، في مخدع الزوجين، في الدكان... في كل مكان يذهب إليه لوران.. لقد جن الرجل، جن لوران، وأصبح قاب قوسين من الموت..

ولكن، لكل أجل ميعاد، وقد يموت الإنسان مرات ومرات قبل أن يقف عن الحركة قلبه وعقله، جاء وقت فكرت فيه مدام راكان بالإضراب عن الطعام حتى تموت من شقائها، فقد خانتها شجاعتها، ولم تعد تتحمل هذا الاستشهاد البطيء الذي طال أمده، وأيقنت أن في الموت راحتها وخلاصها، فوهنها كان يتضاعف، ولوعتها كانت تثور كالبركان كلما طبعت تريز قبلة على خدها.. وكانت تفضل الموت على قبلة الزوجة القاتلة.. وكانت تتمنى أن تفارق روحها جسدها كلما حملها لوران بين ذراعيه.

رفضت كل طعام قدمه لها الزوجان، وقضت يومين كاملين وهي تطبق فاها حتى لا يستطيع لوران أو تريز إدخال الطعام إليه.. وجن جنون تريز، وتساءلت، وهي تنتحب، عما تصنعه متى قضت عمتها.. وألحت عليها أن تأكل، وقبلت خديها ويديها.. كما أنها فقدت حلمها، فجعلت تفتح فكي المرأة كما يفتح المرء فكي حيوان.. ولكن مدام راكان لم تبتلع لقمة واحدة من الطعام.

وما لبث لوران، بعد أن يئس منها، أن نهى زوجته عن محاولتها وقال لها: "دعيها.. دعيها وشأنها.. فلعلنا نظفر بالراحة والهناء إن ولت عنا".

وكان لهذه العبارة فعل السحر على المشلولة، فخافت أن يتحقق أمل لوران وتريز، فيحظيا بالهناء المفقود.. فقالت لنفسها بأنها جبانة

متخاذلة، وأنه لا يخلق بها أن تترك المسرح قبل ختام التمثيلية.. في ذلك الوقت فقط يمكنها أن تفارق الدنيا، أن تنحدر إلى الظلمات.. إلى المجهول.. إلى المكان الذي يوجد فيه كميل.. حتى تقول له:"لقد أخذت بثأرك، فأنعم بالا.. لقد انتقمت لك..".

عليها إذًا أن تؤجل موتها إلى الساعة التي تنضج فيها ثمرة النقمة، لكي تحمل معها حلمًا من الحقد المنقوع الغليل..حلمًا لا تنفك تراه في الصحو والمنام.. وهكذا عدلت عن صيامها وتناولت طعامها.

رأت العجوز بعين بصيرتها أن النهاية أضحت قريبة، فالعلاقة بين الزوجين تسير من سيء إلى أسوإ، ولن يمضي وقت طويل حتى تنفجر الدنيا بهما فتمزقهما، فكل شيء كما رأت ينذر بهبوب العاصفة.. فالكراهية مستعرة الأوار، والخوف ناشب أظفاره في مهجتيهما، وحياتهما والجحيم سواء في العذاب والتجرع من الصاب.. ناهيك عن الضرب المبرح الذي كانا يتبادلانه، وناهيك عن العزم الأكيد الذي كان يشع من عيني كل منهما لقذف الآخر في الهوة السحيقة التي كانا يريانها فاغرة فاها..

وقد فكر القاتلان في الانفصال، وحدثتهما أنفسهما أن يهربا،لكنهما لم يستسيغا فكرة الابتعاد الواحد عن الآخر، فمن يعذب الواحد منهما إن لم يجد الآخر قريبًا منه؟.. فهما يكرهان الحياة البعيدة عن الكراهية، ويمقتان العيش الخالي من المضض.. ويتراءى أن قوة

سالبة وجاذبة تبعدهما الواحد عن الآخر وتدنيها الواحد من الآخر في آن واحد. ومنعهما أيضًا من الانفصال، خوفهما من انكشاف جريمتهما وانتهاك الستر عن خبيئتهما..

وهكذا عاشا في بؤس، تشجعهما رابطة واحدة هي رابطة الجبن..

وجرًا حياتهما البائسة في أخدود الرهبة الذي سلكاه على مضض، وعبرا فيه والكمد في قلب الواحد آخذ بتلابيب الكمد في قلب الآخر..

والمقصلة أيضًا كانت تظهر لهما كلما فكرا في الانعتاق من القيود، المقصلة الحادة التي تفصل الرؤوس..

والعجب العجاب أن تريز التي عمر قلبها بالبغضاء لم تكن تستطيع فراقًا عن زوجها، فهي كلما غادرها لوران، وألفت نفسها بعد قليل في الدكان، شعرت بفراغ عظيم وبحزن كبير، وبوحدة قاسية شاملة، وأخيرًا طلبت من سوزان أن تأتي إليها كل بوم لتقضي معها في الدكان ساعات النهار.

قبلت سوزان عن طيبة خاطر، وأخذت تأتي كل صباح لتجلس في مقعد مدام راكان الخالي. ومنذ ذلك الحين قل صعود تريز إلى البيت، فقد شغلها شاغل آخر عن عمتها، واستغرق وقتها أمر آخر عوضها عن تمضية ساعات في البكاء على قدمي المشلولة..

وكانت تغادر صديقتها أحيانًا لتقضي وقتًا طويلًا في الخارج، وعند رجوعها كان يظهر على ملامحها التعب والإعياء، ولا يكاد نظرها يقع على سوزان الراكنة إلى مقعدها، المنكبة على تطريزها، حتى يتفرج ثغرها عن بسمة طفيفة، فتبادلها المرأة بسمتها وترحب بها وهي تهز رأسها مداعبة..

فتريز حملت بعد زواجها بخمسة شهور، وقد أزعجها هذا الأمر كثيرًا، وخيل إليها أنها ساعة يأتيها المخاض ستلد جثة غريق.. أصبحت تشعر أن في أحشائها جثة بالية أصابها الانحلال. فصممت على التخلص من الجنين، فخلقت في اليوم التالي أسباب الشجار، وما زالت بلوران حتى انهال عليها ضربًا، وخرت مغشيًا عليها، وما لبثت بعد وقت قليل أن أجهضت غلامًا...

ومرت الأيام تباعًا، وكان كل يوم يحمل بين طياته للوران اليأس الذي بلاه طويلًا، والألم الذي طغى عليه طويلًا، والذكريات التي كظته زمنًا طويلًا... وعلم أنه لن يتغير شيء وأن أيامه ستكون متشابهة لا يفترق الأمس فيها عن اليوم، ولا اليوم عن الغد.. ورأى الأسابيع والشهور والسنين التي كانت تطل عليه من عالم الغيب، رآها تمر متثاقلة متباطئة لتخنقه بتثاقل وتباطؤ..

فمتى كان المستقبل بلا أمل، أضحى الحاضر كريهًا مريرًا. واستسلم لوران أخيرًا لما كتب له، ورضخ رضوخًا تامًا للامبالاه العبثية

التي تمكنت من قلبه وعقله وحياته وكيانه، وجعل يغادر الدار في الصباح بلا غاية ولا نهاية، فيهيم على وجهه، ولا يغشى الغرفة التي استأجرها لعمله، خيفة أن يتمثل له وجه كميل في كل صورة يقوم برسمها..

وحاول أن يخفف عن نفسه، وأثبت بالحجج والبراهين أنه كان مخطئًا في ارتمائه في أحضان الشقاء، وأن عليه أن يستخلص من الحياة أطايبها، فلهذا السبب قتل "كميل"، ولهذه الغاية استغنى عن عمله. ولكنه فشل في إقناع نفسه، فالقتل عاقبته وخيمة، والتبطل أثقل على صاحبه من الكد..

وناء بحمله، ولم يخفف عنه وطأة همه إلا التنكيل بتريز وضربها ضربًا مبرحًا.. وكان كلما انهال عليها ضربًا كلما مدت يدها بقوة وسرعة إلى الآثار التي خلفتها عضة كميل في عنقه، فلا يكاد يشعر بأصبعها تصيب ذلك المكان حتى يهدر كالثور، ويصيح صياح من طاشت سهامه. وما أكثر ما أعولت تريز بصوت عال كلما رأت ذلك الأثر الباقي، لكي تضاعف من آلامه، فهدفها الأول هو تعذيبه بوساطة هذه العضة التي وسمه بها الدهر إلى يوم القيامة..

أما القط فرنسوا فقد كان مصدرًا آخر من مصادر شقائه، فهو يلتجئ إلى حضن المشلولة عندما يأتي لوران، والسبب الذي من أجله تأخر لوران عن قتله هو خوفه منه وقرفه من مسه ولمسه، مع أن عينيه البراقتين المستديرتين كانتا تثيران جنونه وتنغصان عليه حياته.. وكثيرًا ما

خاطبه قائلًا: "تكلم أيها الحيوان.. اقصص على الملأ ما تعرفه.. أخبرهم بكل شيء..".

وفي إحدى الليالي ضاق صدره بالقط، فقبض عليه بيد من حديد وألقاه من النافذة، فاصطدم الحيوان بالجدار الناتئ، ثم انطرح على سقف الدهليز الزجاجي وهو يموء مواء يفتت الأكباد، وقضى الليل بطوله وهو يئن، فقد تحطم ظهره، وجعل يموء، ومواؤه يتردد في أذن مدام راكان كأنه ترجيع ابنها كميل.

نظرة أخيرة

أوجس لوران خيفة من التغيير الذي طرأ على تريز، فقد رجعت إليها طبيعتها الأولى، فأخلدت إلى الصمت والسكينة، وجعلت تتغيب عن الدكان والمنزل. فحدثته نفسه بوقوع الشر، فمن يعلم؟ قد يفضي الندم بزوجته إلى إفشاء السر؟ وهذا معناه نهايته الرهيبة.

وكمن يومًا في مكان قريب من البيت، فلما لاحت له تريز من بعيد، رآها ترتدي ثيابًا تشبه الدم باحمرارها، وتدنيها كثيرًا من بنات الهوى، بالتصاقها بجسدها وانحسارها عن مفاتنها، وبإرغامها على المشي بطريقة مبتذلة تنم عن رغبة صاحبتها في أمر لا يخفى على الرجال.. وكانت ترنو إلى المارة، وتتعمد رفع لباسها حتى يروا ما لم يروه من ساقيها.. ولما اجتازت المكان الذي اختبأ فيه، اقتفى خطاها وتتبع أثرها.ومرت بمركز للأمن العام، فارتعد قلبه، وخيل إليه الوهم أنها ستعرج على المكان لتقول للمسؤولين إن المجرم هو لوران... ولكنها استمرت تمشي قدمًا إلى أن وصلت حانة لا يؤمها إلا المومسات، فولجتها بسرعة، وحيث الموجودات فيها تحيه الألفة والصداقة..

وما كادت تأخذ لها مجلسًا، حتى دنا منها شاب ذهبي الشعر فربت كتفها وطبع على خدها قبلة، ثم تأبط ذراعها وخرجا معًا بعد أن قدم لها قدحًا من خمر الإبسنت.

ومشى الشابان في طريق ضيق متعرج، ولم يبطئا أن صعدا إلى الطابق الثالث من إحدى الدور.. ووقف لوران في ظل شجرة وجعل يراقب النوافذ. وأطلت عليه تريز بعد قليل، وأرسلت طرفها يجوس الشارع، وإذا بالشاب يدنو منها فيحوطها بذراعيه ويقبلها.. واختفى الاثنان، وأغلقت النافذة.. وتنفس لوران الصعداء وقد سري عنه..

شعر بالهناء، وبرغبة في الضحك والغناء، فتريز في شغل عن كل أمر، ولن تسول لها نفسها الإيقاع به.. فلتفعل ما تشاء، ولتنتهب اللذات، ولتضاجع الرجال، فهذا لا يهمه ولا يحزنه ولا يوغر صدره، وما دامت المقصلة الدامية بعيدة عن عنقه....

في ذلك المساء طلب لوران من زوجته خمسة آلاف فرنك، فأبت أن تلبي طلبه، زاعمة بأن المال الذي تنازلت عنه مدام راكان أخذ يقل، وأنهما إن لم يلزما الاقتصاد فقدا المعين، وأصبحا معوزين فقيرين..

فقال لها وهو يهز كتفه:"قد يكون ذلك، ولكني أريد المال على التو..".

فصرخت غاضبة: "كلا، كلا، لقد استقلت من عملك، وعشت عالة علي، فلا تنتظر أن أعطيك مزيدًا على ما تأخذ في كل شهر، واعلم أنك.. أنك..." وتلفظت بكلمة أخرى..

فضحك لوران ضاحكًا، وقال: "أنت تتعلمين لغة جديدة من الأشخاص الذين تجتمعين معهم، وهذا يسرني..." وعاد يضحك ويستغرق في الضحك..

فرفعت رأسها، وقالت وهي تحدجه بنظرة يتطاير منها الشرر: "على كل حال، أنا لا أجتمع بقتلة سفاحين..".

امتقع لون لوران وشخص إليها ببصره، ثم قال بصوت متهدج: "أعيريني سمعك يا تريز.. إن اللجاج والحجاج والشجار المستمر لا يعود علينا إلا بالشقاء والتعاسة.. فهلم، أعطيني المال".

"لن تظفر مني بأي مال، فاغرب عن وجهي". ودنا منها وانحنى عليها كأنه يروم صفعها، ولكنه أنشأ يقول: "أنت تتعمدين تعذيبي.. أنت تصرين على مضاعفة آلامي، فاعلمي.. اعلمي أنني سأعترف الآن بكل شيء، سأقول لرجال الأمن إننا قتلنا "كميل"، وسنذهب من بعد- أنا وأنت- إلى السجن، وإلى المقصلة، وإلى الجحيم..".

".. وهل تحسبني أخاف؟ لنذهب معًا..". ونهضت من مكانها، فهبطت السلالم ولوران يتبعها عن كثب، ولكنهما دلفا إلى الدكان، ووقفا يتبادلان النظرات، ثم جلسا، ثم وقفا، ثم كتبت له تريز تحويًا بالمبلغ.. وذهبت في سبيلها، وذهب هو الآخر في سبيله.. أقبل لوران على الخمر يتعاطاها، وشرع يغشى دور اللهو، فيختلط بالنساء، وينادم بنات حواء، ويقضي مع الداعرات ساعات وساعات.. وهو يبحث عن الراحة بفراره من الحقيقة.. ولكن ما زاده هذا إلا حزنًا وضيقًا.

ضاق ذرعًا بالاستهتار الذي لاذ به، وكان رجوعه إلى البيت في خاتمة كل يوم يفتح عينيه الكليلتين على الحقيقة الرهيبة، ساعة يبصر أمامه مدام راكان الجامدة، وتريز فيصيبه الروع ويستولي عليه الفزع..

وبدأت تريز أيضًا تسأم هذه الحياة المبتذلة، فقللت من ارتياد المقاصف والمواخير... لقد قضت شهرًا من الزمن من لهو وعبث ودعارة، ولكنها ضجرت بهذا الضرب من الحياة، ولم يعد المخدر يؤثر فيها، ولاحقها الهم وألح عليها الحزن، وأضحى الحي اللاتيني الموبؤ كريهاً لديها... ولم تلبث أن هجرت عشاقها، ولزمت بيتها، وأهملت زينتها، وعافت النظر إلى ملابسها... وحاولت وسعها أن تنسى نفسها ووجودها..

ولما وجد القاتلان أنفسهما وجهًا لوجه بعد استنفاد جميع الوسائل التي خيل إليهما أن فيها خلاصهما وراحتهما، أدركا أنهما لن يقويا طويلًا على مواصلة الكفاح..

أخذتهما ظلمة حالكة.. اكتنفهما جو خانق.. تحسسا قيود الجريمة التي تربطهما معًا.. فوجدا حلقاتها قوية متينة لا قبل لهما على قصمها أو تحطيمها.. فأيقنا أنهما لن يتسنى لهما أن يفعلا شيئًا... أيقنا أن النهاية تقترب بسرعة..

وتأججت نيران الكراهية في قلبيهما، ورسخت جذور الحقد في هذين القلبين المريضين، وكأنهما أصبحا كلبين هائجين مسعورين يتمنى كل منهما أن يعقر الآخر ويحيل منه كتلة من لحم ودم..

وصب لوران جام غضبه على تريز مرة أخرى، وانتقمت منه تريز بوسائلها الخاصة التي كانت تتقنها.. ثم أتاحا للشكوك مدخلًا إلى شعورهما، فافترضا وأولا وظنا... كل كلمة ها تفسير... كل حركة بادرة من بوادر الوشاية والإيقاع.. ويتبع هذا صراع عنيف، وضرب ولطم وعويل.. ثم هدوء وركود وشرود.

الشجاعة خانتهما كل مرة... كان في الألم البدني شفاؤهما من الأوصاب.. كان في العقاب خلاصهما من العذاب، ولكنهما لم يخطوا خطوة واحدة في طريق الخلاص، فالمقصلة تدخل الهلع إلى قلبيهما كما

يفعل شبح كميل.. إنهما جبانان.. يحبان الموت ويخافانه.. يكرهان الحياة ويتشبثان بها..

ما أكثر ما هرولا إلى مركز الأمن.. ما أكثر ما هرعا راكضين.. وما أكثر ما كانا يعدلان في آخر لحظة عن الاعتراف بالجريمة..

وضربها.. أصبحا وحشين يتربصان الدوائر الواحد بالآخر، ويتحينان الفرص لفتك كل منهما بشريكه.. ولكن ريبهما وفزعهما وكراهيتهما وحدت بينهما بطريقة غامضة، حتى أصبحا لا يقويان على فراق أو يصبران على بعاد– فإن هبطت تريز إلى الدكان لحق بها لوران، وإن ذهب لوران في شأن اقتفت تريز أثره.

وطفح الكيل، وفاض كأس العذاب، ومثل هذه الحال من المحال، والبخار الحبيس لابد أن يجد متنفسًا.وفكرا فيما يجدر بهما صنعه، وحلم كل منهما بالجريمة– بجريمة ثانية يرتكبها هو أو ترتكبها هي– فهذا هو الحل الوحيد– يجب أن يتلاشى أحدهما.. يجب أن يموت.. أن يموت.. لينعم الآخر ببض الراحة.. وقررا أن يرتكبا الجريمة، فوطد لوران العزم على قتل تريز لأنها كانت عقبة في طريق حياته.. ووطنت تريز النفس على قتل لوران لأنه كان يعذبها بوجوده.

وهدأ روعهما قليلًا بعد أن فرخت فيهما فكرة الجريمة، فجعلا يضعان الخطط ولكن دون روية أو اتزان. فالخوف من العاقبة الوخيمة كان متسلطًا على مشاعرهما.. بيد أن القتل لا مندوحة منه، وهو

ملاذهما الأخير إن شاءا أن ينعما ببعض الراحة... والأسبق إلى تحقيق وطره هو الأفلح.. ومع أن المقصلة كانت تتراءى لهما صبحًا وعشيًا، إلا أنهما صمما على المجازفة، وعولا على ارتكاب الجريمة.. ومنيا أنفسهما بالسفر إلى الخارج بعد الجريمة، فيفوز القاتل منهما بالمال والحرية الراحة..

وكان للوران صديق صيدلاني يحتفظ في صيدليته بمختلف السموم الفتاكة، فشرع لوران يكثر من تردده عليه. وانتهز فرصة انشغال الرجل في أحد الأيام فسرق قارورة فيها مسحوق أبيض، وقد كتب عليها صاحبه (سم قتال لا يستعمل إلا بدرهم)..

وفي الوقت نفسه ابتاعت تريز سكينًا ذات نصل حاد وأخفتها في درجها.. دوت قهقهة الموت.. استغرق كميل ضاحكًا.. خفق قلبا الزوجين. مرت الساعات بطيئة وانية.

وتألقت عينا مدام راكان، وقد داخل حسها أن النهاية أمست وشيكة.. والقاتلين أصبحا على أبواب الآخرة.. وكميل لا يلبث أن يؤخذ بثأره..

امتازت ليلة الخميس التالية بما ساد جوها من حبور وانشراح واستمر الحاضرون يلعبون ويمجنون ويروون فكاهاتهم التي رووها مئات المرات حتى ساعة متأخرة من الليل، وعندما هموا بالانصراف صرح غريفي بأنها أمتع ليلة حظي بها منذ سنين.

وأمضت سوزان أكثر وقتها مع تريز، وهي تحدثها بآمالها ومخاوفها، وما ترجوه من يسر الوضع في الساعة العصبية القريبة. واستمعت إليها تريز بانتباه عظيم، فقد أطبقت شفتيها، ولم يدع لوران فرصة تمر دون التعليق على الحديث ببعض الكلمات التي كانت تثير عاصفة من الضحك.

ولما سأل ميشو عن الجروح والخدوش التي بانت آثارها في وجه تريز، زعمت وهي تبتسم باهتة، بأن قدمها زلت، وأنها وقعت فأدمتها الوقعة وخلفت هذه الآثار في وجهها.

أما المرأة المشلولة فقد جمدت كعادتها في مكانها، وفي قلبها بركان من الحمم يثور ويقعد ينفجر بما يتلظى في داخله. فليالي الخميس التي استنت قانونها ونظمتها بنفسها أمست أثقل شيء على قلبها المعذب.. أيقنت المرأة في المدة الأخيرة أن القدر يلعب لعبته، وأن عليها أن تتذرع بالصبر ليتحقق حلمها فيثأر لابنها.. وكانت طيلة ساعاتها تبتهل إلى الله أن يبقيها في قيد الحياة حتى ينقع غليلها ما سوف تشاهده من خاتمة القاتلين المريعة التي بدأت تلوح لها.وكانت أمنيتها التي صورتها لها مخيلتها الحاقدة هي أن تشبع بصرها من مشهد العذاب الهائل الذي أناخ على الزوجين، وأطبق عليهما كما تطبق الصاعقة على شجرتين فتحرقهما وتسقط فروعهما وتسلب الحياة من جذورهما.. وفي سياق الحديث، وبينما الجميع يتبارون في إلقاء الكلام على عواهنه،

انبرى غريفي يقول: "إن المرء متى دخل هذا المنزل يود لو لازمه طيلة عمره..".

فصاح ميشو: "والواقع أني لا أشعر بالميل إلى النوم، بينما أنا ألوذ بفراشي عادة في الساعة التاسعة كل ليلة".

وفكر أوليفيي قليلًا، وانبرى يقول: " إن هذا البيت يفوح بالطهر والشرف والاستقامة، وهذا ما يجعلنا نطمئن إليه.." وضحك حتى بانت أسنانه الصفراء. وقال غريفي: "هذه الغرفة رمز السلام..".

وفي تلك الأثناء كانت سوزان تقول لتريز بأنها ستجيء لزيارتها في اليوم التالي، ولكن تريز ردت عليها بسرعة فقالت كمن أخافه أمر: "كلا، كلا.. لا تأتي قبل أن يحين وقت الغداء.. فقد أغادر البيت في الصباح".

وذهب الضيوف وأوصد الباب وتنفس الزوجان الصعداء كأن عبئًا ثقيلًا انزاح عن عاتيقهما، ولكنهما تجنبا القاء النظرات، وطفقا يتحركان كآلتين، وما لبثا أن جلسا وهما يشعران بالإعياء والتهافت..

وقال لوران أخيرًا: "ألم يحن وقت النوم بعد يا تريز؟".

فانتصبت واقفة وتناولت زجاجة الماء المحلي الذي دأبت على شربه كل ليلة.

فأخذ لوران الزجاجة من يدها وهو يقول: "دعيني الليلة أهيئ لك شراب.." واستدار قليلًا وأزال سدادة الزجاجة وصب الماء في كأس، ثم أفرغ السم فيه، في الدقيقة التي كانت تريز تتناول السكين..

في تلك الدقيقة التفت لوران نحوها والتفتت تريز نحوه.. وتلاقى الناظران... فرأى ما صنعت، ورأت ما صنع... وجمدا في مكانيهما، وأحسا بالقشعريرة الباردة تسري في جسديهما، وفهما كل شيء، وشدها مما فهما.. ذهلا ما أبصرا– فهو يريد قتلها وهي تريد قتله.. أفعم الأسى قلبيهما.. شعرا بالحزن والشفقة والرثاء.

وانفجر الاثنان يبكيان، وأطبقا الواحد على اآخر ونشيجهما يملأ الفضاء.. وقد أنبأهما حسهما بأن شيئًا نبيلًا أخذ يتنبه في أعماقها.. فانتحبا، وذرفا الدمع، ولم يكن بكاؤهما بكاء أهل الأرض، ولم تكن عبراتهما إنسانين عاديين.. واستعادا إلى الذاكرة، في لمحة عين، تلك الحياة القذرة التي اندفعا إليها، فأيقنا أنهما سيكونان أجبن الخلق طرا لو تقهقرا في آخر لحظة فنكصا فرارًا من الموت.. وتبادلا نظرة أخيرة، نظرة شكر وعرفان، وتناولت تريز الكأس من يد لوران فتجرعت نصفه ثم أرجعته إليه فجرع الباقي.. وسقطت تريز وسقط فوقها لوران، ولامست شفتاها عنقه واستقرتا على آثار الجرح الذي أحدثته أسنان كميل..

ومضت ساعات الليل والجثتان الهامدتان منطرحتان على الأرض، والمصباح الباهت يعكس عليهما نوره الخافت، وذؤابته المتذبذبة تحرك الظلال، والموت الظافر يرنو إلى ضحيتيه ويلعق شفتيه..

وطلع النهار، ومضت ساعات الصباح والمشلولة في مكانها جامدة ساكنة تحدق وتطيل التحديق في الجثتين، وتخاطب نفسها دون أن يخرج لها صوت: "لبيك يا كميل.. لبيك.. هاهما بين يديك.. ها هي أمك تنتظر الرحيل إليك.